

## الفصل الثالث

### الجواب

#### اغتصاب العقول

١٦٦ - كان جوزيف غوبلز ، وزير الدعاية في ألمانيا النازية ، يحرص المواطنين الألمان على فتح نوافذ المساكن والأماكن حتى آخر مداها ، ورفع أصوات المذياع حتى أقصى درجاته لكي تستطيع الافكار التي يبثها عن طريق الاذاعة الوصول إلى أذن كل ألماني واختراقها ، سواء أكان راغباً في الاستماع أم راغباً عنه . من الممكن تصور أن كثيراً من الناس في ألمانيا لم يكونوا يرون فيما يحرص عليه غوبلز إلا نوعاً من الازعاج الذي يؤدي السمع ويقلق الراحة . أما سيرجي تشاخوتين ، الكاتب التقدمي الألماني ، فقد كان يرى غير ما يراه الكثير من مواطنيه . فذهب يتابع ما يذاع ويرصده ويجمعه ويدرسه . ذلك لأنه التفت منذ البداية إلى أن غوبلز يصنع شيئاً غير مسبوق في تاريخ البشرية بذلك الجهاز العبقري حديث النشأة : المذياع . كان يصنع ويصطنع ويصوغ مبادئ وأفكار وقيم أمة كاملة لتمثيل مبادئه وأفكاره وقيمه ، ليضع أقدام الملايين من أبنائها على الطريق الذي حدده حزبه ، لتندفع عليه متقدمة إلى الغاية التي أرادها . كل هذا بدون أن يعنى أقل عناية بالحوار المباشر مع أي فرد ، أو مجموعة من الأفراد ، من أولئك الملايين وبدون أن يقيم وزناً ، أي وزن ، لما يتفرد به كل منهم من مبادئ وأفكار وآمال بحكم تفرّد كل واحد منهم بملكاته الخاصة وبموقفه الاجتماعي الخاص ، وبدون أن يتوقف لحظة ليسألهم أو ليسأل أيّاً منهم عما يريدون . كان قد أراد " لهم " واختار ، وكانت مهمته أن يحملهم على أن يريدوا لأنفسهم ويختاروا ما أرادوه هو نفسه واختاره .

ولقد صاحب سيرجي تشاخوتين تلك التجربة التاريخية المثيرة ورأى كيف أفلح غوبلز وأعوانه في صياغة أو إعادة صياغة ، أفكار أمة كثيفة العدد ، عريقة التاريخ ، متقدمة الحضارة ، متفوقة العلم ، على ما يريد الحزب النازي لتندفع كتلة واحدة تحت قيادة أدولف هتلر على طريق الحرب التي انتهت بهزيمتها ودمارها وانتحار قائدها ، ويبدو أن غوبلز كان يدرك أن مسؤوليته عما أصاب الأمة الألمانية أكبر من مسؤولية قائدها ، فلم يكفه قتل نفسه ، بل قتل أطفاله الخمسة ثم قتلت زوجته نفسها قبل أن يقتل هو نفسه يوم أيار / مايو ١٩٤٥ .

١٦٧ - في عام ١٩٣٨ ، أي قبل أن تبدأ الحرب الأوروبية الثانية ( ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ) ويشهد أهوالها كان سيرجي تشاخوتين قد أنشأ مما رصد وتابع وجمع ودرس كتاباً ( نشر عام ١٩٣٩ خارج ألمانيا ) أعطاه عنواناً ذا دلالة مفززة : اغتصاب الجماهير ولا يخفى ما في كلمة اغتصاب من دلالة الهتك القسري لحرمة العقل والتلوّث لطهارة الفكر ، والاستغلال البهيمي لملكات الناس.

١٦٨ - لم يكن غوبلز يملك من وسائل القهر الدعائي إلا الصحف والمذياع ومع ذلك نجح في أن يقنع ثمانين مليوناً من الألمان بأن ألمانيا فوق الجميع ، وبأن الجنس الآري أرقى أجناس الأرض وبأن أوروبا الشرقية هي المجال الحيوي لدولة الرايخ الثالث ( الاسم الرسمي لألمانيا النازية ) وبأن أدولف هتلر قائد ملهم لا يخطئ ، وبأن انتصار ألمانيا هو عين اليقين . وورث الغرب المنتصر بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية كل ثمار عبقرية الشعب الألماني المنهزم تحت قيادة النازية وكان من بين ما ورثه علم صياغة عقول الجماهير وقوانينه الأساسية الذي أسمى علم " الدعاية " أو " الاعلام " . فلم يلبث أن تعمقت جذوره وامتدت فروعه وأينع وأزدهر وأثمر وأنشئت من أجله الجامعات والمعاهد المتخصصة وتفرغ

لدراسته وتدرسه مئات الالوف من خلاصة الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس ، والمفكرين ، والكتاب ، وأصبحت له في كل دولة وزارة أو إدارة ونظام أو منظمات . وزوده التقدم العلمي بأدوات بالغة الكلفة وبأسلحة خرافية المضاء . وزوده التقدم الفني بكل ذي جاذبية من أسباب الاغراء والاعواء ، فألغى المسافات ، ووحد اللغات واختصر الأزمنة حتى أحال الأرض إلى قرية على حد تعبير الماريشال ماك لوهان فيما كتبه عن " الاعلام " في كتابه قرية الأرض . وبدأت ظاهرة عالمية ليس للبشر بها عهد . ظاهرة مطاردة عقول البشر ، أيان كانوا ، لاغتصابها بالكتب والنشرات والملصقات والمحاضرات والصحف والمجلات والاذاعة والتلفزيون ، ووسائل نقلها خرافية السرعة السلوكية وغير السلوكية ووسائلها العجيبة من الاقمار الصناعية . وحلت الجماعات والجمعيات والأحزاب التي تلبس ملابس وطنية محل بعثات التثشير التي انتشرت في الأرض خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بدون أن تخفي ملابسها الكهنوتية . وبلغ الأمر حداً قال فيه ج . درينكور في كتابه **الدعاية قوة سياسية جديدة** إن سيادة الدعاية في هذا العصر حقيقة واقعة . إنها مميزات حضارة جديدة . ان المؤرخين سيقولون في المستقبل ان القرن العشرين كان قرن الدعاية .

### الامبريالية الحضارية

١٦٩ - حينما تحولت الدعاية إلى " قوة سياسية " في القرن العشرين تملكها بل احتكرها الأقوى ، واستخدمها لتثبيت قوته أو لينميتها . والقرن العشرون هو قرن بلوغ الاستعمار ذروته الامبريالية وقرن مقاومة الاستعمار في الوقت ذاته ، فاستخدمت القوى الامبريالية السلاح الجديد لاحكام قبضتها على الشعوب وذلك عن طريق إضعاف مقدراتها على التحرر . وهكذا نشأ تعبير " الامبريالية الحضارية " الذي استعمله عالم الاجتماع الأمريكي فيكتور بالدريج الاستاذ في جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة الأمريكية في كتابه **علم الاجتماع : دراسة نقدية في القوة والصراع والتغيير ( ١٩٧٥ )** . يذهب هذا العالم الأمريكي إلى أن كل حضارة لها قيمها الخاصة وهي تساند هذه القيم حين تهاجم قيم المجتمعات الأخرى . إن هذا الهجوم قد يصل إلى أقصى مداه فيتحول إلى " امبريالية حضارية " أي محاولة من مجتمع ما لفرض قيمه على مجتمع آخر كما فرض كل من الأغريق والرومان حضارتهم بقوة السلاح على البلاد الشاسعة التي غزوها ففرضوا عليها حكاهم ودياناتهم ونظمهم الاقتصادية ، وكما فعلت أوروبا ابتداء من القرن الخامس عشر في المستعمرات فحاولت أن تفرض عليها الحضارة الأوروبية ، ولكنها لم تفعل بتلك المحاولة شيئاً أكثر من إشاعة الاضطراب في حضارات تلك المستعمرات . ويقول : " إن غزو الامبراطوريات الأوروبية للهند وأفريقيا وجنوب شرق آسيا قد كان مستتراً بستر شقافة من البواعث المعقولة ، ولكنه في حقيقته لم يكن إلا اغتصاباً اقتصادياً وقحاً واسع النطاق . إن كثيراً ممن ينتقدون حرب فيتنام ، مثلاً ، لم يتقوا قط فيما كانت تعلنه فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية من أن غايتها إنقاذ الفيتناميين من الخطر الشيوعي . بالعكس . إن كثيراً من الناس يعتقدون أن تلك الغاية كانت انقاذهم من أجل استغلالهم بمعرفة رجال الاعمال . من هذه الزاوية فإن اقحام الديمقراطية الأمريكية والقيم الاقتصادية لم يكن إلا حالة تقليدية من الامبريالية الحضارية . أن تلك الأمة الخاضعة وأهلها من المدنيين الذين لاحول لهم ولا قوة قد فرضت عليهم قيم حضارية من قبل قوى دولية لها مصالح تقتضي حمايتها هذا التغيير . . . "

١٧٠ - يعتمد هذا النشاط الاستعماري بشكل أساسي على البيانات التي يجمعها دارسوا الحضارات في فرع من العلوم انشأه المستعمرون وأسموه " علم الاجناس التطبيقي " ، وأنشأوا له معاهد متخصصة ، منها " الجامعة الاستعمارية " في بروكسل ( بلجيكا ) و " المدرسة الاستعمارية " في باريس ( فرنسا ) وجامعة كورنيل في نيويورك ( الولايات المتحدة الأمريكية ) التابعة لوزارة الخارجية ، وأدخلوا مادة تدرس في قسم خاص في جامعات اكسفورد وكمبردج ولندن ( انكلترا ) ، وذلك لتخريج وتدريب اخصائيين يوفدون إلى أطراف الأرض يعاونهم من أبناء الأرض المستهدفة نخبة مختارة من الدارسين

في مراكز البحوث ، وأساتذة الجامعات تم إعدادهم للتعاون ، تحت شعار البحث الاجتماعي أو العلمي بالمنح الدراسية ، والبعثات ، والمؤتمرات ، والندوات والمكافآت المغربية ، والنشر الواسع ، وبكل أجر مفر مادياً أو معنوياً . فينتشرون في " حملات مشتركة " في المدن والقرى لجمع البيانات ، واستنطاق البشر ، وتجميع الأجوبة ، ورصد الملاحظات فيما يسمى بالمسح الميداني أو المنهج الاحصائي أو الكشفي . ولما كانت الحضارة كنسق معرفي عقائدي مركب يتضمن المعتقدات والفنون والآداب والشرائع والعادات وأية سمة يكتسبها الانسان من انتمائه إلى مجتمع معين كما يقول تيلر ، فإن أنوف علماء علم الاجناس التطبيقي لا تترك مجالاً من مجالات الحياة الخاصة أو العامة بدون أن تندس فيه ، من أول أنواع المأكولات وأسلوب أكلها ومواعيده إلى المعتقدات الدينية والسياسية . ويذهب كل هذا إلى طالبه ومموليه حيث يدرس بمناهج علمية غاية في التقدم والتعقيد ، ثم تقدم خلاصته إلى مراكز قيادة النشاط الاستعماري متضمنة أجوبة علمية مدروسة عن السؤال : كيف يتم التعامل مع شعب معين على الوجه الذي يضعف مقاومته للامبريالية . ولقد استشرى هذا الأسلوب الكشفي الاستعماري في بلاد العالم الثالث ، ومن مادته تزود أجهزة اغتصاب العقول . . وما على الذين يريدون أن يروه رأي العين إلا أن يلتفتوا إلى كل أولئك الكاترة والباحثين ورفاقهم من الأجانب الذين انتشروا في مدن وقرى وريف الوطن العربي منذ بضع سنين لجمع البيانات والمعلومات واستنطاق أهلنا ، حتى من الفلاحين والفلاحات ، وتوجيه اسئلة شفوية ، أو حتى مكتوبة ، وتجميع الاجابات بحجة إجراء دراسات اجتماعية من غير طلب من الدولة وفي غيبة رقابتها ، ثم ليسألوا : لحساب من كل هذا البحث ، ومن الذي يدفع تكلفته وإلى من يذهب في نهاية الأمر ، ولماذا ؟ .

لقد أفزع الاستغلال الاستعماري لهذا الاسلوب الكشفي حتى بعض العلماء في أوروبا . فأصدرت " جمعية علم الاجناس التطبيقي " في انكلترا عام ١٩٥١ ميثاق شرف علمي نشرته في كتاب تنبه فيه العلماء والباحثين والدارسين إلى التناقض بين الأمانة العلمية وبين تسخير ما تسفر عنه تلك الأبحاث في الدعاية لخدمة أهداف سياسية عدوانية ضد الشعوب .

وكان أكثر الناس فزعاً ، بطبيعة الحال ، دول العالم الثالث .

١٧١ - يقول فرانسيس بال عميد المعهد الفرنسي للصحافة والأستاذ في جامعة باريس ، في دراسة كتبها للجمعية الفرنسية للقانون الدولي نشرت في مجلتها عام ١٩٧٨ ، إنه منذ زمن طويل ودول العالم الثالث تشعر بالخطر المسلط على شعوبها من خلال وسائل الدعاية والاعلام التي تملكها وتوجهها القوى الاستعمارية بقصد الحفاظ على الهيمنة الامبريالية . وكان على رأس قائمة المخاطر تشويه حقيقة مجتمعات العالم الثالث وتفكيك مكوناتها الحضارية التاريخية وإعادة بناء ثقافتها وأفكارها وتقاليدها وقيمها لتكون على ما يتفق مع مصالح دول الغرب ، مستغلة عدم التكافؤ بين مقدراتها الاقتصادية والتكنولوجية على غزو عقول شعوب العالم الثالث وبين التخلف الاقتصادي والتكنولوجي الذي يحول بين دول تلك الشعوب وبين الدفاع الدعائي لتحسين عقول الشعوب أو لتحريرها .

والواقع أن فزع العالم الثالث من هذا الخطر الحديث قد عمّ فأصبح إدراكه جماعياً ولقد كان الوطن العربي مركز أول حشد لمقاومة هذا الخطر . ففي الجزائر انعقد المؤتمر الرابع لدول عدم الانحياز في أيلول / سبتمبر ١٩٧٣ . وكان خطر الغزو العربي لعقول الشعوب أحد الموضوعات الأساسية التي ناقشها المؤتمر وأوصى في إعلانه الختامي بتعاون الدول غير المنحازة في ميدان النشاط الاعلامي " لوضع حد لمحاولة إهدار خصائصهم الحضارية والثقافية " . وفي تونس انعقد عام ١٩٧٦ مؤتمر من خبراء الاعلام العرب والأفارقة استجابة لدعوة مؤتمر وزراء خارجية دول عدم الانحياز الذي انعقد عام ١٩٧٥ . وقد جاء في قرارات المؤتمر أن دول عدم الانحياز تعاني من هيمنة الدول المتقدمة على وسائل الاتصال بالجمهير بحكم احتكارها لأغلب وسائل الاتصال في العالم واستغلالها هذه الهيمنة للتدخل في شؤون

الدول الأخرى الداخلية بقصد تحقيق أهداف النزوع الامبريالي والاستعماري الجديدة . وفي تموز / يوليو ١٩٧٦ انعقد في نيودلهي بالهند مؤتمر وزراء الاعلام في الدول غير المنحازة ، وفيه عبرت السيدة أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند حينئذ ، عما تقوم به الدول الاحتكارية من تزييف حقيقة العالم الثالث عن طريق الدعاية والاعلام بالكلام والأفلام والأفلام ثم قالت بمرارة:

" اننا نريد أن نستمع إلى مايقوله الافريقيون عن الأحداث في أفريقيا وأن نقدم التفسير الهندي لما يحدث في الهند" .

وفي تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٦ انعقد المؤتمر العام لمنظمة " يونسكو " في نيروبي ، وفيه عبر ممثلو دول العالم الثالث عن إدانتهم لهيمنة الدول المتقدمة على مقدرات الدول النامية ومصائر شعوبها عن طريق الاعلام بقصد إحلال الثقافة الغربية محل الثقافة الوطنية . ويشهد فرانسيس بال في كتابه " الاعلام والمجتمع " أن قد تألق في حلبة الدفاع عن عقول الجماهير في الدول النامية ، خلال هذا المؤتمر الوزير العربي مصطفى سعودي الذي كان يمثل تونس العربية .

١٧٢ - بل ان الفزع قد ارتدّ إلى مصدره : فنرى رئيس جمهورية فرنسا ، يصدر في ٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٤ قراراً جمهورياً بتكليف وزير الداخلية بأن : " يقترح على الحكومة في خلال مدة لاتزيد على ستة أشهر التدابير الكفيلة بضمان ألا يؤدي تقدم وسائل الاعلام في القطاع العام والمشارك والخاص إلى مايمس حرمة الحياة الخاصة ، والحريات الفردية العامة " . وقد شكل وزير الداخلية لجنة برئاسة نائب رئيس مجلس الدولة تتبعها مجموعات عمل متخصصة وقدمت تقريرها في ٢٧ حزيران / يونيو ١٩٧٥ . خلاصة التقرير - فيما يعيننا - أن خطر اغتصاب عقول الجماهير الفرنسية لم يقع بعد ، ولكن مقدماته تنبئ بأنه وشيك الوقوع ، مما يقتضي أن تتخذ الدولة إجراءات وقائية تحول دون وقوعه . واقرحت اللجنة ما شاءت من إجراءات ملأت كتاباً ، نشر مستقلاً عام ١٩٧٦ .

فمن أية قوة إمبريالية كانت تخشى فرنسا على عقول شعبها ؟ من قوة أكبر من مناعتها القومية . من الولايات المتحدة الأمريكية قائدة الامبريالية العالمية ، وأكثر الدول تقدماً علمياً ومالياً ومقدرة تكنولوجية على اغتصاب العقول . ثم انها الدولة التي اكتشفت قبل أية دولة أخرى أحدث وأخطر وأخفى وسائل الغزو الحضاري .

### قادة الرأي العام

١٧٣ - ففي نطاق هذا التقدم المذهل في عالم الدعاية ، موضوعاً وأساليب ، اكتشف ثلاثة من الامريكيين هم لازار سفيلد ، وبريسلون ، وجوديت في دراستهم المشتركة " اختبار الشعب " ( ١٩٤٠ ) اكتشافاً أعمق أساليب الدعاية أثراً في صياغة أفكار الشعوب ، وهم من أطلقوا عليهم اسم " قادة الرأي " وقادة الرأي هؤلاء هم أشخاص يتمتعون في محيطهم بمراكز اجتماعية دينية أو علمية أو مالية أو عشائرية تضيف عليهم مقدرة خاصة على التأثير في صياغة آراء وتحديد اتجاهات مواطنيهم ، إمّا عن طريق التوجيه أو عن طريق التقليد ( أضاف باتلر وستوكس الانكليزيان المركز الحزبي في كتابهما عن التحول السياسي في بريطانيا ( ١٩٦٩ ) ) . إنهم إن جمعوا على أن يقودوا الناس إلى حيث يريدون ينقاد لهم الناس طائعين . وقد تأكدت صحة وخطورة هذا الاسلوب في دراسات لاحقة ، أعوام ١٩٤٨ ، ١٩٥٥ قام بها لازار سفيلد أيضاً ومعه آخرون . كيف يجتمع هؤلاء ؟ ولماذا يجتمعون ؟ يقول لوي بوكيت في كتابه مقدمة علم النفس الاجتماعي ( ١٩٧٧ ) إنهم يجمعون فوراً كل جماعة من " قادة الرأي " قد تكون جماعة أقل عدداً وأقل مقدرة على التأثير في الجماهير ولكن أكثر تصميماً على اغتصاب عقولها ، تقود " قادة الرأي " وتؤثر فيهم بوسائل قد لاتجدي مع الجماهير ذاتها . يستأجرونهم خفية في مقابل مادي أو معنوي ليقوموا ، بالنيابة عنهم ولحسابهم ، بعملية التلقيح . على هذا الكشف تأسست تلك الجماعات

المفضوحة في الولايات المتحدة الأمريكية التي يسمونها " اللوبي " ، ولكنها غير مقصورة على الولايات المتحدة الأمريكية ، بل هي أكثر انتشاراً في مجتمعات العالم الثالث تنشط تحت أسماء غير مفضوحة وترفع شعارات قد تصل في طهارتها اللفظية حد شعار الدين أو شعار الحرية .

وهي تتبع في أداء وظيفتها عدة قوانين يمكن بمراقبة التزامها في كل دعوة معرفة ما إذا كان قادة الرأي قائمين على دعوة أم قائمين على دعاية . إنها القوانين التي أسماها الكاتب الفرنسي جان ماري دوميناش في كتابه **الدعاية السياسية ( ١٩٥٩ )** " قوانين القهر الدعائي " .

١٧٤ - فقد استطاع دوميناش أن يستقرىء من كتاب سيرجي تشاخوتين الذي أشرنا إليه من قبل ، وما كتب بعده ، خمسة قوانين للقهر الدعائي . أولها التركيز على مقولة بسيطة : مبدأ أو شعار تبثه أجهزة الدعاية وتكرر بثه ، ويدعو له قادة الرأي ويركزون عليه بدون تثبيت انتباه الجماهير إلى فرعياته أو تطبيقاته أو آثاره حتى يصبح جزءاً لصيقاً بالعقل الواعي أو بالعقل الباطن بحيث أن مجرد ذكره يضع المتأثر به في وضع نفسي وعصبي وفسولوجي معين يجعله قابلاً للتصرف المستهدف كما اكتشف بابلوف في نظريته عن الفعل المنعكس الشرطي . أما عن الفرعيات والتطبيقات والآثار التي لا بد أن تتوقع الجماهير الواعية الحديث عنها فتنبأ - طبقاً للقانون الثاني - على المبادئ أو الشعارات المضادة . فيختار القهر الدعائي ، ويجسم ، ويبالغ في إبراز ما لا بد أن يكون فيها من قصور فكري ، أو ما صادفها من فشل تطبيقي ولو كان فشلاً أنياً أو مرحلياً أو جزئياً . وهكذا يبقى " المبدأ - الشعار " أمناً بعيداً عن أي حوار جماهيري ، وتتصرف ملكات الجماهير في الحوار إلى ما هو ضده . ولما كان الحوار ذاته يعني أن موضوعه ما يزال محل خلاف ، وبالتالي أنه ما يزال غير يقيني الثبوت أو الصحة فإن عوامل الشك تتجمع حوله وتنحسر في الوقت ذاته عن " الشعار - المبدأ " الذي أراد القهر الدعائي عن طريق إبعاده عن دائرة الحوار ، تحويله إلى مقولة مسلمة . ثم يأتي القانون الثالث ليحاصر عقول الجماهير ويحصرها في ثنائية " الشعار وضده " فلا يسمح لها ، بكل وسائل الإغواء الفكري والفني ، بأن تلتفت إلى قضايا أو مبادئ أو شعارات أو مشكلات أو حتى آمال أخرى قد يؤدي الالتفات إليها إلى الإفلات من الحصر أو الحصار الثنائي . ولما كانت المبادئ أو الأفكار المراد تلقيح عقول الجماهير بها لا تقذف في فراغ بل تردّ إلى رحم حضاري مليء بتراث تاريخي متراكم من المعتقدات والتقاليد والخبرات ، فإن جهد القهر الدعائي يجب أن يتجه - طبقاً للقانون الرابع - إلى تفكيك المكونات الحضارية بالتشكيك في صحة المعتقدات وملاءمة التقاليد وصدق الخبرات التي تسد نوافذ العقول دون الطارئ الجديد . وليس أسهل من قياس الواقع الماضي على الأمل المستقبل ، ليصبح كل ما مضى مديناً . وأخيراً يأتي القانون الخامس وهو توجيه الدعاية بدون التعرض - لاسلبياً ولا إيجابياً لما قد يكون بين الأفراد والجماعات من فروق روحية أو فكرية أو مادية أو اجتماعية لإخفاء واقع التمايز والتمييز بين الأفراد والجماعات ، وما قد يثيره من خلاف أو صراع . إخفاؤه في جوف كتلة هائلة من أفراد نمطيين مجردين من واقعهم الاجتماعي فملتقين بالضرورة عندما يتوفر في كل منهم بالتساوي وهو الحد الأدنى من الوعي ، بالإضافة إلى ما يصدق على كل منهم من أنه " إنسان " . حينئذ تبدو محاولات طرح المشكلات الاجتماعية الواقعية خروجاً على " الجماهير " يستحق الردع باسم " الجماهير " أو تنكراً مشياً لمبدأ مقدس .

وهذا هو على وجه التحديد ما يفعله في الوطن العربي الذين يناهضون العروبة بالإسلام والذين يناهضون الإسلام بالعروبة .

كيف ؟

### الإنسان الهدف

١٧٥ - ليس ثمة اتفاق على دلالة كلمات الحضارة والمدنية والثقافة أو على الفوارق بينها . وكثيراً ماتستعمل كمترادفات في الدراسات التاريخية . وقد اخترنا استعمال كلمة الحضارة في هذا الحديث للدلالة على نسق معرفي مركب لاتساق هذه الدلالة مع منهجنا في أن المعرفة تسبق الفعل ، وأن الإنسان قائد مسيرة التطور الجدلي المتصلة من الواقع إلى الفكر إلى الواقع ، ولأنه الاستعمال الراجح في علم تاريخ الأجناس البشرية خاصة في عناصره العقلية التي هي موضوع حديثنا . وطبقاً له لاتكون الحضارة شخصاً قائمة خارج الإنسان . إن ماهو خارج الإنسان من تراث فكري أو فني وصروح مادية ، هي آثار حضارته ودلائلها ورموزها . وهكذا يكون الإنسان من كل جيل حامل حضارته من الماضي ومنميتها جديلاً ، فناقلاً إلى جيل مقبل من هنا كانت " شخصية " الإنسان المجال الرئيسي لاكتشاف المكونات الأساسية لحضارة الأمة التي ينتمي إليها والميدان الرئيسي لغزو الامبريالية الحضارية ، كما رأينا من قبل ؛ إذ لا يتم نقض المكونات الأساسية لحضارة أمة ما إلا من خلال تحطيم الهيكل الأساسي لشخصية المنتمين إليها . فما هي " الشخصية " وكيف تتكون على هيكلها وكيف تنقض ؟ هذي أسئلة لايمكن إدراك مدى خطورة الامبريالية الحضارية إلا إذا عرفنا الإجابات عنها . فلنحاول .

١٧٦ - يستعمل علماء النفس في حديثهم عن الشخصية لفظين متلازمين هما الوحدة والتفرد . يعنون بالوحدة جماع الشخص ، أي الشخص كله : بكل مكوناته الفسيولوجية والعقلية والاجتماعية . ويعنون بالتفرد ما يميز شخصاً عن آخر . ويكاد يجمع علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الأجناس البشرية ، والاختصاصيون في فروع تلك العلوم ، على أن الهيكل الأساسي لبناء شخصية الانسان يكون قد اكتمل حين يبلغ السادسة عشرة . كل ماكتسبه بعد ذلك ويتميز به هو بناء حول هذا الهيكل لايقوم معتدلاً ومستقراً إلا بقدر اتفائه نوعاً وكماً مع هيكله الأساسي . ففي تلك السن يبلغ الهيكل الفسيولوجي للشخصية أقصى معدلات سرعة نموه ، ثم يبدأ في الهبوط حتى يتوقف تقريباً في سن الواحدة والعشرين ( أوليفر هوبلز ، الشباب -١٩٣٧ ) ، إلا المخ فإنه يستمر في النمو وزناً حتى يصل إلى أقصى درجات نموه في الفترة ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين ( مارتن البرت **علم الاعصاب الاكلينيكي والشيخوخة** -١٩٨٤ ) . أما في مجال الذكاء ، الوجه الثاني لعملة الانسان ، فطبقاً لما لاحظته بياجيه من اختبارات الذكاء التي أوردتها في كتابه **أصل الذكاء عند الأطفال** ( ١٩٥٣ ) ، وما أوردته غاستون فيو في كتابه **الذكاء : تطوره وأشكاله** ( ١٩٥١ ) ، وما جاء في كتاب **علم النفس التمريضي** ( ١٩٧١ ) تأليف جنيفر جارفي و جون جبسون ، وما هو وارد في الموسوعات المتخصصة ، يبقى الذكاء ملكة كامنة في الطفل منذ ولادته ، ثم ينمو بسرعة كبيرة من سن الثالثة حتى السادسة ، ثم يتصاعد تدريجياً حتى نهاية سن الرابعة عشرة . ولاينمو بعد ذلك إلا بدرجة تافهة لايعتد بها . .

بقي الهيكل الحضاري . والهيكل الحضاري الأساسي للشخصية يتكوّن من مجموعة من الضوابط الذاتية أي الداخلة في تكوين الشخصية ذاتها ، التي تتحكم وتحدد لكل فرد موقفه واتجاهه وسلوكه في مواجهة الغير من الأشياء والظواهر والناس ، أي في المجتمع ذاته . من أين تأتي هذه الضوابط ؟ كيف تدخل في تكوين الشخصية في البحث عن الجواب نعود إلى ماهو مجمع عليه من أن المجتمع هو مصدر تلك الضوابط . إنه يدس بذورها في نفس الطفل وهو بعد كائن بيولوجي لم يميّز حتى ذاته . ثم يتابع الطفل في نموه الفسيولوجي والعقلي داساً في تكوينه بذور ضوابطه بذرة بذرة ، راعياً لها ومنميتها . حتى إذا بلغ الطفل أشده واکتمل تكوينه ، كان ذلك الكائن الذي خلقه الله إنساناً ، قد خلقه المجتمع شخصية متميزة عن غيره من بني الإنسان .

أما مصنّع هذا الخلق الجديد ، أو أداة تشكيل الشخصية المتناسكة من شمع الإنسان اللدن كما اختار أن يقول فيكتور بالدريدج ، فهو الأسرة . الأم أولاً ، ثم الأب معها ، ثم الأخوة والمرافقون الأقربون . هذه أيضاً حقيقة علمية لم ينكرها أحد منذ مطلع القرن العشرين . وقد تأكدت أولوية تأثير الأم في الخلق الاجتماعي من أن الطفل لايدرك ذاته منفصلة عن ذات أمه بالولادة ، بل بعد ذلك بوقت طويل ، قد يمتد

إلى عامين . خلال هذين العامين أو أقل قليلاً ، يتأثر تأثراً قوياً وتلقائياً بها كمصدر إشباع حاجته البيولوجية ، كما تنتقل إليه على وجه يكاد يكون عضوياً أو ميكانيكياً ، آثار نبرات صوتها وتعبير وجهها ولمسات يدها . وينفعل انفعالاً مباشراً غير شعوري بانفعالاتها تجهماً أو ابتساماً . ويحرك شفثيه متمتماً ، أو يصدر أصواتاً ، أو يبكي ، في محاولة تكرر الشرط اللفظي ليحصل من أمه على لذة إشباع حاجته ، الشرط اللفظي الذي حدده سلوك الأم نفسها .

و حين تأتي الوثبة الكبرى في النمو في سن الثالثة يكون قد وعى ذاته وتعلم اللغة معاً . وعيه ذاته منفصلاً عن غيره ، يفسح مجاله النفسي لتلقي ضوابط علاقته مع الغير : الضوابط الاجتماعية . وتعلمه اللغة يمكنه من إدراك تلك الضوابط مجردة عن الموقف الآني في رموزها اللغوية ، فيحتفظ بها في ذاكرته النامية ويسترجعها كلما أراد أن يتصور أو يتوقع متعلماً من بين الماضي المذكور والمستقبل المتصور ، الملاءمة بين ما يرغب في وقوعه وما يمكن أن يقع في عملية متنامية يسمونها التكيف . كل هذا ومجتمعه الذي يدسّ في شخصيته بذور الضوابط الاجتماعية في أسرته كمصدر أول وأساسي ، حتى بعد أن يضاف إليها المدرسة ورفاق الفصول . المهم أن الشخصية من خلق المجتمع وليست مورثة بيولوجياً ، وأنها تكتمل من خلال التفاعل مع الآخرين وهم أساساً أفراد الأسرة ، وأن هذا الاكتمال يتم في سن السادسة عشرة أو نحو ذلك . لاخلاف على محصلة هذه الخلاصة ، وإنما يختلف العلماء تبعاً لتركيز كل مدرسة منهم على أسلوب دس هذه الضوابط الاجتماعية في تكوين الشخصية .

فثمة مدرسة " المرأة " التي أسسها شارلز كولي في كتابه **التنظيم الاجتماعي** ( ١٩٠٩ ) ، التي تقول إن كل إنسان يرى نفسه ويفهمها من خلال نظرات الآخرين إليه ويتعلم كيف يضبط سلوكه من خلال حكم الناس عليه ، وهكذا تنتقل الضوابط الاجتماعية إليه وهو يرى ويفهم ما يقبله الآخرون وما يرفضونه طبقاً لتلك الضوابط الاجتماعية ذاتها . وثمة مدرسة جورج ميد التي عرض نظريتها في كتابه **العقل والنفس والمجتمع** ( ١٩٣٤ ) ، التي يركز فيها على دور اللغة في انتقال الضوابط الاجتماعية إلى الطفل من خلال الأسرة . وثمة المدرسة السلوكية التي يمثلها روجر براون في كتابه **علم النفس الاجتماعي** ( ١٩٦٦ ) والتي ترى أن عاملي العقاب والثواب هما الموجهان للطفل حتى يتوافق سلوكه مع الضوابط الاجتماعية ، فيتعلم من الثواب وما يصاحبه من لذة ما هو مطلوب منه ، ويتعلم من العقاب وما يصاحبه من ألم ما هو ممنوع عليه وثمة - أخيراً وليس آخراً - مدرسة التقليد التي شرحها باندورا وولترز في كتابهما **التعلم الاجتماعي ونمو الشخصية** ( ١٩٦٣ ) والتي ترى أن الطفل يتمثل الضوابط الاجتماعية حتى تصبح جزءاً أساسياً في بناء شخصيته من خلال تقليده ، أو محاكاته تصرفات أفراد أسرته . الخ .

هذه الخلافات لاتهمنا كثيراً في هذا الحديث . الذي يهمنا الآن معرفة ما هي هذه الضوابط .

١٧٧ - لايجدي حصر عددها ، ولايمكن . لايجدي لأنها مجموعة من المعارف تختلف كثيراً وأقليلاً وقد تتناقص من مجتمع إلى مجتمع . وبالتالي لاتكون محاولة حصرها مجدية - حتى إذا كانت ممكنة - إلا منسوبة إلى مجتمع معين . وحصرها غير ممكن لأنها ما لا حصر له من المعارف . أقصى ما يمكن أن يقال عنها إنها معرفة قواعد سلوك مميزة ما بين الصواب والخطأ في التعامل مع الأشياء والناس والوجود الشامل ، الأشياء والناس معاً . تنتمي إليها الأديان والمعتقدات والشرائع والتقاليد والآداب والقيم والمعايير الجمالية للفن والأدب والموسيقى والعمارة . . إنها كل تلك المعارف التي تسمى مجتمعة " حضارة " . والتي تتضمن المعايير الاجتماعية التي تحدد للإنسان في كل مجتمع ما ينبغي أن يكون عليه موقفاً واتجهاً ومسلكاً ، وما يتوقعه من الآخرين . وهي التي تفسر وتبرر وتجمل تلك المعايير . وإنها تنتقل من جيل إلى جيل فيما يقال له تواصل الأجيال . وإن هذا الانتقال يتم من خلال تلقي الأطفال المعرفة الحضارية عن مجتمعهم بالترغيب أو التهديد أو التقليد . . لايعم ، المهم أنهم يتلقونها غير واعين ، من آباء وأمهات تلقوها حين كانوا أطفالاً غير واعين ، عن أجداد تلقوها غير واعين عن أسلاف كانوا

يتلقونها أطفالاً غير واعين . وتلعب اللغة الدور الأساسي في حمل الحضارة من جيل إلى جيل وضمان استمرارها .

يقول وليم مكدوغال في كتابه **علم النفس - دراسة في السلوك** : " ينمو كل إنسان سويّ تحت التأثير المستمر للمجتمع الذي ولد فيه ، ويشكل المجتمع كل جزئية من تطوره الذهني . فيصبح وارثاً لصرح من التقاليد الثقافية والخلقية قام بناؤه بطيئاً بإضافة لبنة إلى لبنة خلال الجهود التي بذلتها آلاف الأجيال . إن اللغة هي أكثر أجزاء التقاليد الثقافية أهمية . إنها أداة وشرط أية مكتسبات لاحقة . إن الطفل من خلال تعلمه لغته القومية يستطيع أن يحصل من المعرفة أكثر مما يستطيعه الرجل البالغ من خلال تمكنه إجادة لغة أجنبية . إن هذا الأخير لايفعل إلا أن يعبر عن الشيء المألوف بألفاظ جديدة . أما الطفل فيتعلمه كيف يستعمل الكلمات يتعلم أيضاً كيف يحول كل العالم الذي حوله إلى أشياء ويكتشف مميزات كل منها والعلاقات فيما بينها وليست كل تلك الأشياء والمميزات والعلاقات إلا انتقاء من بين العدد اللانهائي الذي قد يكتشفه عقل كامل النضج . ولكن الطفل لاينتقي أساساً إلا ما يعتبر من أساسيات حضارة مجتمعه مقوداً في ذلك باللغة التي خلقها أسلافه الأقدمون للتعبير عن تلك الأوجه المنتقاة من العالم . ويرث الطفل السويّ من مجتمعه أيضاً عدداً كبيراً من المعتقدات المتعلقة بما انتهى إلى اكتشافه من أشياء . وسيبقى الطفل حاملاً تلك المعتقدات طوال حياته كلها بدون تساؤل عن صحتها ، أو حتى بحث عن كيف أصبحت معتقداته . . . " ويقول برغسون في كتابه **التطور الخالق** ( ١٩٠٧ ) " اننا نرغب ونريد ونعمل بماضينا كله " .

ويصوغ عالم النفس السوفياتي ميخائيلوف المفاهيم ذاتها صياغة طريفة في نهاية كتابه الرائع **لغز النفس** ( ١٩٨٠ ) فيصور إنساناً يحدث نفسه وهو على عتبة مدخل مرحلة الشباب فيقول : " الآن ، أنا قادر على أن أقوم نفسي وسلوكها حتى في مواجهة أكثر المواقف تعقيداً ، إذ أنني ، بصفة أساسية ، الخلاصة الكلية لخبرة النشاط المعقد التاريخي الذي انتهى إليّ ويعيش داخلي كما تضمنته لغة أمتي فبالإضافة إلى أصدقائي وأولياء أمري ومعلمي وأساتذتي ، لي محاورون وموجهون ومساعدون في أولئك الذين واجهوا أصعب المشكلات وحلولها خلال القرون الماضية " .

إن هذه الصورة الشعرية قد تولد وهماً بأن الحضارة كهيكل أساسي للشخصية منظم احتياطي للسلوك يلجأ إليه الشخص أو لايلجأ . الواقع العلمي غير هذا . إن الإنسان يتلقاها بدون إرادة ، وهي تنظم وتضبط سلوكه بدون انتباه ، ويستجيب لها تلقائياً بدون جهد ، ويتبع توجيهها بسلاسة اتباع ما هو " فطري " لاشدوذ فيه ، لأنه حينئذ لايتبع إلا ذاته .

من هنا ، يبدأ كل إنسان مسيرته إلى المستقبل . فكيف يتصور هذا المستقبل ؟ إنه يتصوره محدداً شكلاً ومضموناً بما لايتناقض مع المعايير الحضارية الكامنة في ذاته . إنه لايتصوره هكذا لأنه يريد ، ولكن لأنه لايتستطيع تصوره إلا هكذا ، إذ هو التصور المنبثق من ذاته المتسق مع شخصيته . ومن هنا يصح القول بأن وحدة التاريخ ( صانع الحضارة ) تحدد وحدة المصير ( صنع الإنسان ) . كما يصح القول بأن " المستقبل الأفضل " لأي مجتمع ذي حضارة متميزة هو ما لايتناقض شكلاً أو مضموناً مع المعايير الحضارية لهذا المجتمع . بل إنه المستقبل الأفضل " الممكن " لأنه " وحده الذي يحقق صانعه من البشر ذواتهم به وفيه بجهد سلس لاشدوذ فيه . واخيراً قد يصح القول بأنه لايساوي قلامة ظفر كل ما كتبه الغربيون وغير الغربيين عن التفاضل بين الحضارات المختلفة للمجتمعات المتعاصرة . كما لم يكن يساوي تلك القلامة كل ما اصطنعه الغربيون من لاهوت وفلسفات وأفكار عن " رسالة الرجل الأبيض في نشر الحضارة " بين الشعوب المختلفة لتغطية الغزو الاستعماري . لقد انكشف الغطاء بعد حجب الحقيقة الاستعمارية وراء حجب التفاضل الحضاري . وفهم حتى بعض الأوروبيين مدى الصدق فيما كان يقوله الصينيون القدامى بعد استماعهم إلى المبشرين يدعونهم إلى نور الحضارة الأوروبية . كانوا يتهامسون -

في أدب جم - بأن أولئك الأوروبيين مخلوقات غريبة وبدائية وبربرية وأقل تحضراً من الخنازير لأنهم ، بالرغم من معرفتهم القراءة والكتابة ، لا يستطيعون فهم تعاليم كونفوشيوس . كان الصينيون في ذلك الوقت مشغولين ببناء مستقبلهم على أسهم الحضارية المتميزة برفع القيم الخلقية إلى مستوى أسمى من أية قيم أخرى ، وبتقدير يصل إلى حد التقديس للإنسان ، فحرموا تعاطي الأفيون ( ١٧٢٩ ) الذي كان يزرعه المستعمرون الانكليز في الهند وبيبعونه في الصين . . ولكن التجار الأوروبيين " المتحضرين " من انكلترا وفرنسا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية كانوا يحشدون سفنهم المحملة بالأفيون في ميناء " مكاو " ، ويهربون بضاعتهم خلسة إلى داخل الصين . فلما حاولت حكومة الصين منع التهريب وضبط الأفيون شن الانكليز ضد الصين الحرب المعروفة في التاريخ باسم " حرب الأفيون " ( ١٨٣٩-١٨٤٤ ) وأرغمت الصين بالقوة على إباحة الأفيون تجارة وتعاطياً ، ثم بعد حرب أخرى استمرت أربع سنوات ( ١٨٥٦ - ١٨٦٠ ) شنتها انكلترا وفرنسا معاً ، أرغمت الصين على إباحة زراعة شجر الأفيون في أرضها . يدمرون عقل الإنسان لكي يستولوا على ثروات الأوطان .

ولكن ذلك كان أيام الاستعمار المباشر والقهر العسكري السافر ، أما في أيامنا هذه ، أيام الاستعمار الخفي ، وعصر الدعاية ، فإن اغتصاب العقول بالكلمات يغني عن تدميرها بالمخدرات . إنه ليس أقل تكلفة فقط ، بل انه أكثر جدوى بكثير . فباسم البحث العلمي تدرس حضارة المجتمع الضحية ( علم الأجناس وعلم الأجناس التطبيقي ، وعلم الحضارات المقارنة . . . الخ ) ، وبالعلم تكتشف عناصر الهيكل الأساسي لشخصية المنتمين إليه ( علم الاجتماع وعلم الأعصاب ، وعلم النفس . . . الخ ) فتدمر تلك العناصر ( بالدعاية الموجهة من الخارج ، وإعداد قادة الرأي في الداخل ) فتضعف مناعة المجتمع الحضارية ويتهيأ لاستقبال الغزو بدون مقاومة فيتم الاستيلاء على مستقبله ببسر قد يصل إلى حد استدعاء الغزاة ليغتصبوا - سلمياً - مجتمعاً هياهم لهم نفر من أبنائه ، كانت عقولهم قد اغتصبت من قبل .

### اعتراض جانبي

١٧٨ - لولا أن الحديث ينبىء بأن قد يطول أكثر مما ينبغي لكان مما ينبغي أن نتحدث حديثاً وافية عن المفهوم الماركسي للانتماء حتى نردّ مقدماً على ما قد يثيره بعض الماركسيين من اعتراضات على أساس أن انتماء كل إنسان إنما يكون إلى طبقة ، وأن شخصية كل إنسان هي شخصية طبقته بحكم أن أسلوب انتاج الحياة المادية هو الذي يحدد الانتماء الاجتماعي " حتماً " ، بدليل أن الشخصيات غير متجانسة في أي مجتمع طبقي . هذا الاعتراض مردود ووارد معاً . فقد عرفنا من قبل أن العلماء المتخصصين في دراسة الشخصية يستعملون في التعبير عنها لفظين متلازمين هما الوحدة والتفرد . يعنون بالوحدة جماع الشخص ، أي الشخص بكل مكوناته الفسيولوجية والعقلية والاجتماعية ، ويعنون بالتفرد ما يميز شخصاً عن آخر ( فقرة ١٧٧ ) . وحديثنا منصب على الهيكل الأساسي للشخصية فهو يتناول مكونات وحدة الشخصية المتجانسة بين كل الأفراد الذين ينتمون إلى مصدر حضاري واحد . وهو ما كان يعنيه عالم النفس السوفيياتي ميخائيلوف بقوله إن الإنسان هو الخلاصة الكلية لخبرة النشاط التاريخي المعقد الذي انتهى إليه ويعيش داخله ، كما تضمنته لغة أمته لغز النفس ( ١٩٨٠ ) . فالاعتراض مردود - أما عنصر التفرد في الشخصية فهو بناء مكتسب على هيكلها الأساسي من مصادر بيولوجية وفسيولوجية وفكرية واقتصادية وروحية أيضاً . فالاعتراض وارد ولكنه ليس داخل في نطاق الحديث . وسنقدم إلى من يخطر لهم الاعتراض المردود مثلاً من تجربة تاريخية طويلة ، رائعة ومروعة أيضاً ، جرت في الاتحاد السوفيياتي ، تثبت أن التجانس الفكري والاقتصادي والسياسي في مجتمع اشتراكي ، لم يستطع أن يلغي عدم التجانس الحضاري بين أعضاء ، وقيادات الحزب الشيوعي السوفيياتي نفسه ( فقرة ٢٢٣ ) .

أما إذا كان ثمة من يريد أن يتخذ من الاعتراض فرصة ليعود إلى المقولة المادية المنهجية القديمة : إن أسلوب إنتاج الحياة المادية هو الذي يحدد الانتماء الاجتماعي حتماً فيكفينا أن نحيله إلى ما حملته إلينا د . مراد وهبة على صفحات كتابه **محاورات فلسفية في موسكو** ( ١٩٧٤ ) من خلاصة ما اكتشفه زائراً للاتحاد السوفياتي لمدة عام ( تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٨ - تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٩ ) . وهي خلاصة بالغة الثراء ينقلها ماركسي بالغ الأمانة . خلاصة الخلاصة أن الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس في الاتحاد السوفياتي يراجعون " المادية الجدلية " ( المنهج الماركسي ) في اتجاه التشكيك في صحة الحتمية المادية والإقرار بأنه : في نطاق التأثير المتبادل بين الأشياء والظواهر يكون الإنسان هو قائد مسيرة التطور الجدلي ( جدل الإنسان ) . وأن هناك اتجاهاً يمثله اليانكييف رئيس قسم المنطق في معهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم في موسكو عرضه في كتاب صدر عام ١٩٦٨ بعنوان **عن الأصنام والمثل** يقصر الجدل على الإنسان دون المادة ودون الفكر . وأن ثمة عالماً من أتباع مدرسته أنشأ كتاباً في هذا بعنوان **ماهية الإنسان الفاعلة كمبدأ فلسفي** ( ١٩٦٨ ) .

وقد ظهر أثر هذا الاتجاه الذي نقله إلينا د . مراد وهبة فيما كتبه بعض علماء النفس في الاتحاد السوفياتي في السنين الأخيرة . ففي كتاب يحمل عنوان **مشكلات النمو العقلي** ( ١٩٨١ ) يبده مؤلفه أ . ن . ليونيف بقوله : " حين يتأثر الكائن الحي على وجه أو على آخر بمؤثر خارجي فإنه يهضمه ويتمثله . ولا يكفي من أجل هذا أن يبقى سلبياً متأثراً ، بل لابد له هو أن يفعل شيئاً في الوقت ذاته . هذا الفعل قد يأخذ شكل عملية داخلية أو حركة خارجية ولكن لابد من أن يحدث " . . . ثم يأخذ هذه القاعدة مطبقاً إياها باستفاضة مصحوبة بخلاصات التجارب وجداولها إلى أن يصل إلى آخر الكتاب لينفي صحة " وجهتي نظر " في كيفية عمل الإنسان المؤثر بما هو خارجه . أولاهما ترى أن في الإنسان وظائف عقلية ونشاطاً معرفياً يعمل ذاتياً بمجرد التأثير بظاهرة خارجية ( وجهة نظر مثالية ) ، وترى الثانية أن الإنسان لا يفعل حين يتأثر إلا أن يعيد ما اكتسبه بالمران والتكرار من خبراته السابقة ( وجهة نظر مادية ) لينتهي إلى أن الإنسان يعي تجاربه وما يصل إليه من تجارب تاريخية ، ويهضمها ويتمثلها لا ليكررها ولكن ليستخدمها في تغيير ظروفه .

مثل هذا الاتجاه واضح الظهور أيضاً في كتاب ف . ت . ميخائيلوف **لغز النفس** ( ١٩٨٠ ) فيبعد عرض مطول لما قاله هيغل وما قاله رسل ، يتبنى تعريفاً طريفاً للإنسان ، ينقله عن عالم سوفياتي آخر اسمه أموسوف **تشكيل الفكر والعقل** ( ١٩٦٥ ) ، فيقول إن الإنسان " كائن منظم قادر على إدراك المؤثرات الخارجية واستخراج معلومات منها ، وإدخال معلومات في قوالب ذات مستويات مختلفة ، والتأثير في محيطه الخارجي طبقاً لخطته ذاته على مستويات متعددة . فالإنسان في النهاية هو ضابط ذاتي لخطته " . ويضيف ميخائيلوف من عنده : " حتى نستبعد أي مكان لسوء الفهم نقول إن الإنسان ضابط ذاتي طالما أن نشاطه مؤسس على خطة قائمة في داخل ذاته وليس خارجها على أي وجه " . . . الخ . . . وبعد ؟

وبعد ، فلنعد إلى موضوع حديثنا .

## ذو الحدين

١٧٩ - يتحدد الهيكل الأساسي لشخصية الإنسان ، إذن ، بانتمائه إلى حضارة معينة . ومن خلال دراسة حضارته يتم كشف شخصيته ومعرفة كيفية التعامل معه عن طريق الإعلام والدعاية والرأي بأكبر قدر من فرص النجاح . النجاح في تطويره أو في تدميره . ذلك لأن سلاح الإعلام والدعاية والرأي ، ككل سلاح علمي ذو حدين . فكما تكون غايته الإجهاد على الضحية في القتال ، تكون غايته حمايتها بدفاع فعال . وكما يصلح لاغتصاب العقول يصلح لتطهيرها . وإذا كنا قد بدأنا تاريخه كأداة اغتصاب فلأن تلك كانت بداية تاريخه كعلم . ولكنه الآن أصبح سلاحاً في أيدي كل الشعوب ، لا يختلف أداؤه إلا تبعاً لاختلاف

القوى التي تستعمله والغايات التي تستهدفها . ولن يكون غريباً أن يزعم كل داعية ، صاحب دعوة أو دعاية أو رأي ، أنه إنما يستهدف التطوير لا التدمير . ولن يكون غريباً أن يتصدى له داعية ( صاحب دعوة أو دعاية أو رأي ) لينقض ما يزعم ، ثم يزعم أنه بمناقضته إنما يدافع عن التطور ضد الانحراف المدمر . وكل هذا لن يكون أكثر من اختلاف في حقيقة الرأي أو رؤية الحقيقة ، إن دل على شيء فإنما يدل على أن ليس من بين المختلفين من يصلح حكماً فيما يختلفون فيه . وتبقى الحقيقة الموضوعية هي الحكم الموثوق بدون ظلم أو نفاق . والبحث العلمي هو وحده الدليل إلى حيث توجد الحقيقة الموضوعية . إذ " العلم هو معرفة المعلوم على ما هو به " . من هنا فإن أية دعوة أو دعاية أو رأي موجه إلى الإنسان العربي ، لا يتوقف تقويمه ، ومعرفة ما إذا كان مطهراً أم مدمراً ، على ما يقوله الذين يخالفونه دعوة أو دعاية أو رأياً ، بل على الآثار الموضوعية التي يحدثها في شخصية الإنسان العربي . وهذا ينطبق علينا ، ويلزمنا ونلتزم به . ففي الجزء الأول من هذا الحديث اختلفنا مع الذين يناهضون العروبة بالإسلام خلافاً قائماً على الأساس الإسلامي ذاته ، الذي يبنون عليه رأيهم ، حتى نحتج عليهم بما لا يستطيعون رده ، إذ هم ونحن نحتكم إلى كتابنا : القرآن . واجتنبنا الاحتجاج بالأحاديث وأقوال الفقهاء لتجنب مواطن الخلاف فيها ، وهي كثيرة . هذا بالرغم من علمنا أن الأحاديث الأحاد ، وإن كانت محل خلاف ، والمذاهب الفقهية ، وإن اختلفت ، قد طبقت في الوطن العربي قروناً طويلة وصاغت حياة الناس ، وتحول كثير من قواعدها إلى قيم وتقاليد وعادات وآداب دخلت في التكوين الحضاري للأمة العربية ، فأصبح الناس يلتزمون بها بدون بحث عن أصلها التشريعي أو الفقهي . وهي بهذا قد غدت أكثر تأثيراً في حياة العربي - مسلماً كان أم غير مسلم - لأنها جزء من بناء هيكل شخصيته . وسنرى تجربة تاريخية واضحة الدلالة على صحة ما نقول . ومع ذلك لم نثرها في خلافنا مع الظالمين حتى لانحتكم إلى ما يقبل الخلاف .

كذلك كان موقفنا من الذين يناهضون الإسلام بالعروبة ، يزعمون التقدم غاية ؛ فاختلفنا معهم في الجزء الثاني من هذا الحديث خلافاً قائماً على الأساس العلمي ذاته الذي يبنون عليه رأيهم حتى نحتج عليهم بما لا يستطيعون رده إذ هم ونحن نحتكم إلى العلم وأبحاثه . واجتنبنا الاحتجاج بالأراء والمذاهب المثالية أو الميتافيزيقية لتجنب مواطن الخلاف فيها ، وهي كثيرة . هذا بالرغم من علمنا أن لتلك الأراء أنصاراً واتباعاً كثيرين في الوطن العربي ، وأنها تصوغ حياة قطاع كبير من الناس فيه منذ أكثر من قرن تحولت قواعدها إلى قيم وتقاليد وعادات وآداب ذات طبيعة حضارية ، وهي بهذا قد غدت مؤثراً قوياً في حياة كثير من العرب ( المتعلمون والمتفكرون والأثرياء خاصة ) ، لأنها تخالط بناء هيكل شخصياتهم ، وإن لم تتحول إلى حضارة عربية . وسنرى تجربة تاريخية واضحة الدلالة على صحة ما نقول . ومع ذلك لم نثرها في خلافنا مع المنافقين حتى لانحتكم إلى ما يقبل الخلاف .

الآن ، في هذا الجزء الثالث والأخير من حديثنا جاء وقت الاحتكام لغير أطراف الخلاف جميعاً . تمهيداً لقبول هذا الاحتكام طرحنا فيما سبق ( فقرة ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ ) ما قاله ويقوله ويكاد يجمع عليه علماء متخصصون عن " الشخصية " ، وهم بعد ليسوا أطرافاً في الخلاف موضوع هذا الحديث . وهذا أقصى ما نستطيع أن نقدمه من إنصاف إلى الذين نختلف معهم . فلنتقدم إذن إلى الإنسان العربي ، الهدف ، لنعرف أولاً شخصيته ، ولنعرف ثانياً ماذا يفعلون بها ، ثم لنعرف أخيراً لماذا يفعلون .

### الشخصية العربية

١٨٠ - مالذي يعنيه ، على وجه الدقة ، وصف إنسان بأنه عربي ؟ إنه لا يعني أنه ينتمي إلى دولة عربية ، فهو يحمل هويتها ويوصف بها ، ذلك لأن ليس في الوطن العربي قطر عربي متميز بهذا الوصف عن الأقطار الأخرى . في الوطن العربي بلدان تحمل أسماء جغرافية أو شعبية أو عشائرية ، وتوصف جميعها بأنها بلدان " عربية " وصفاً غير منكور ، لافي داخلها ولا في خارجها ، ولا في أي مكان من العالم . فيرد السؤال ذاته بالنسبة إليها : مالذي يعنيه القول عن مجموعة محددة ومحدودة من البلدان

مختلفة الأسماء والمواقع والنظم والحكام أنها بلدان " عربية " ؟ الجواب عن السؤال في الحالتين واحد . إن وصف إنسان بأنه عربيّ يعني تمييز انتمائه إلى شعب متميز بأنه عربيّ . ووصف دولة بأنها عربية يعني أن رعاياها ينتمون إلى شعب متميز بأنه عربي . هذا الجواب لا يكفي لتحديد دلالة قطعية لكلمة " عربي " فهي كلمة أطلقت على مدى قرون طويلة على تجمعات بشرية أسرية وعشائرية وقبلية وشعبوية ، ولم تكن شاملة كل البشر الذين يوصفون الآن بأنهم عرب . وقد أدى تجاهل هذا فيما يسمى الفكر القومي إلى الحديث عن " العرب " بدون تفرقة في الزمان ، كما لو كان عرب اليوم هم سلالة عرقية لعرب الجاهلية . كما أدى تجاهله في الفكر اللاقومي ( الأمي أو الاقليمي ) إلى الحديث عن شعوب عربية متعددة . بدون أن يقول لنا الأولون إلى أين إذن ذهبت الشعوب التي كانت تملأ الأقطار التي نصفها الآن بأنها عربية قبل الفتح العربي خاصة ، والتاريخ لم يذكر لنا أن العرب الفاتحين قد أبادوا تلك الشعوب ، وبدون أن يقول لنا الآخرون على أي وجه يصفون شعوباً متعددة بأنها عربية ؟ من أين جاء هذا الوصف المميز ؟ وما هو مضمون تميزه ؟ بدون معرفة الإجابات الصحيحة عن كل تلك الأسئلة سيبقى الوصف " عربي " بدون دلالة تسمح بالحديث عن " الشخصية العربية " .

١٨١ - من المسلم أن التكوين البشري للمجتمعات في حركة تطور مستمرة من الأسرة إلى العشيرة ، القبيلة ، إلى الأمة . . . إلى ما لا ندرى الآن كيف يكون التكوين في المستقبل غير المنظور . ما ندرية هو أن انتقال مجتمع من طور إلى طور لا يتم إلا بعد أن يستنفذ الطور الذي قبله كل إمكاناته المادية والبشرية لإشباع احتياجات البشر المادية والفكرية والروحية المتجددة أبداً . وهو أمر قد يستغرق قرناً أو عشرات القرون تبعاً لظروف النشأة ومكانها والتأثير المتبادل بين المجتمعات المتعاصرة . ولكن ، كما يقول عالم الاجتماع أوستاس شيسر في كتابه **الحياة الناجحة** ( ١٩٥٢ ) : إن الاتجاهات الاجتماعية كانت دائماً متطورة من الأسرة إلى القبيلة إلى الأمة . تماماً كما هو الحال في الحياة العضوية التي تبدأ بالخلية وتنتهي نامية إلى حيويات معقدة " .

وأكثر ماندرية أهمية بالنسبة إلى هذا الحديث أن الانتقال من طور إلى طور لا يتم إرادياً بقرار فردي أو جماعي بل يتم تدريجياً على مدى القرون من خلال الكفاح الإنساني الطويل لإشباع حاجاته ، وما يصاحبه من صراع داخليّ وخارجيّ ضد الطبيعة وضد الناس . ومن خلال هذا التطور ذاته ، تتطور حضارة كل مجتمع ، مصاحبة تطوره ، لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه . فثمة حضارة عشائرية ، وثمة حضارة قبلية ، وثمة حضارة شعوبية ، وثمة حضارة قومية . . . إلى ما لاندرى الآن كيف تكون عليه الحضارة في المستقبل غير المنظور . المهم أنه في زمان معين ، في مكان معين ، يكون لكل مجتمع معين ، في الزمان والمكان ، حضارته ، لا تتخلف عنه كما لا تتخلف خصائص المادة عن أي من عناصرها في حالة نقائه . فهي الحضارة الملازمة ، المناسبة ، الملائمة أفضل الحضارات بالنسبة إليه ، حتى بدون أن يعرف لماذا .

١٨٢ - ونحن نزع - وكنا على مدى ربع قرن ثابتين على الزعم - بأن العرب أمة مكتملة التكوين . مالذي يعنيه هذا من بين مايعني ، عن الشخصية العربية ؟ يعني كبدية أن الحضارة العربية حضارة قومية لا عشائرية ولا قبلية ولا شعوبية . لدينا وفيها كل ما نقلته إلينا لغتنا من تراث حضاري موروث من الأطوار العشائرية والقبلية والشعبوية قبل أن نكون أمة في طور التكوين إلى أن أصبحنا أمة . انتقل إلينا عبر الأجيال المتعاقبة في مسيرة تقودها اللغة من أطفال ، إلى أطفال ، إلى أطفال ، وتشكلت به الشخصية العربية من جيل إلى جيل . ولكن لغتنا المتطورة أيضاً لم تنقل إلى أي طور مررنا به إلا ما يناسب أطراد النمو إلى الطور الذي يليه . إن الأهرام الخالدة أدلة على حضارتنا البائدة ، ولكنها لا تعني شيئاً بالنسبة إلى حضارتنا السائدة .

وحين تم الفتح العربي الإسلامي فجمعنا في دولة ، ووقر لنا الاستقرار على الأرض الخاصة ، والتفاعل فيما بيننا وبينها ، ودخلنا به طور التكوين القومي إلى أن أصبحنا أمة تمت حضارتنا وأبنت وأثمرت عقائد وتقاليد وعادات وقيماً وأداباً وفنوناً متطورة ، متميزة عما سبقها بتلك الإضافات التي تميز الحضارات القومية . أهم هذه الإضافات ما يدخل في عناصر التكوين القومي " الاختصاص بالأرض دون باقي البشر " . وطننا : نمجد تاريخه ، نظمنا فيه ، نعترب بعيداً عنه ، نحافظ عليه ، نفيه بالحياة ، نعيش من خيرهِ ، نشترك معاً ، ودون غيرنا ، في التمجيد والاطمئنان والاعتزاز والمحافظة والفداء والخير . وتعتبر أجيالنا المتتابعة عن هذا الانتماء والولاء والوفاء فكراً وأدباً وفناً وغناء وموسيقى وأناشيد . . وأحزاناً ودموعاً أيضاً . إنه ليس أرضاً ولكنه تجسيد مادي لمفهوم دخل ، في خلال التفاعل معه ، إلى صميم تكوين شخصية كل عربي ، وأصبح جزءاً من هيكلها الأساسي الاجتماعي ، تحرسه ضوابط اجتماعية من التقاليد والعادات والقيم والآداب . . .

هكذا وبدون وعي ، أو بوعي ، يتجه الإنسان العربي السوي إلى المستقبل ، مقوداً بانتمائه إلى الوطن بدون أن يعرف كيف يقاد ، وإن كان يشعر أنه لا يقود إلا نفسه . وتقاتل أجيال من أطراف الأرض العربية من أجل تحرير فلسطين السليبية بدون أن تعرف ، أو تسأل ، لماذا تقاتل . إلا أنه من مرارة الشعور بالهزيمة ومن أمل الفرحة بالنصر ، يشعر كل منهم في ذاته أنه يقاتل من أجل تحرير شخصيته ذاتها . . . الخ .

١٨٣ - ما هو الدليل على صحة هذا الحديث عن العشائر والقبائل والشعوب ولأمم غير هذا الشعور بالانتماء الذي يقود البشر بوعي أو بدون وعي ؟ هل من المستبعد أن يكون كل هذا تصويراً ذهنياً لتاريخ لم يقع لمجرد مساندة رأي دستته قوى في بعض العقول العربية التي اغتصبتها بالاعلام والدعاية وقادة الرأي ، خاصة بعد أن عرفنا مدى القدرة على اغتصاب العقول ؟ نريد أدلة من الواقع الموضوعي بدلاً من الصيغ الفكرية المجردة .

فليكن .

فيما يلي دليلان . الأول من بحث علمي في التاريخ . والثاني من تاريخ البحث العلمي .

### مصر العربية

١٨٤ - لو شئنا لتناولنا تاريخ الشعب العربي في كل قطر منذ أن كان أسرة ، فعشيرة ، فقبيلة ، إلى أن أصبح جزءاً من الأمة العربية . ولكن هذا يطول . نكتفي لأسباب يملها الواقع العربي الذي نحياه بأن نضرب مثلاً من مصر كيف كانت فرعونية وكيف أصبحت عربية . وما يصدق على مصر يصدق على كل قطر ، وإن اختلفت الوقائع والأسماء . وليعرف المفتونون " بشخصية مصر " أن كل إنسان من مصر ذو شخصية عربية إسلامية أعجبهم هذا أم لم يعجبهم . لا لأننا نتصور ذلك أونريده ، ولكن لأنه الواقع الموضوعي . وليعرف الشعب العربي في مصر ، وغير مصر ، لماذا نشطت حتى الضراوة ، دعوة مناهضة العروبة بالإسلام ومناهضة الإسلام بالعروبة ، في مصر ، في السنين الأخيرة .

### عن الماضي الاقليمي

١٨٥ - قبل أن توجد أية دولة فيما يسمى الآن الوطن العربي ، بل قبل أن توجد الأمة العربية ، وقبل أن توجد الدول والأمم جميعاً ، كانت مصر موقعاً جغرافياً يسمى مصر ايبم . وكانت فيما بين الخليج والمحيط بمثابة واحة كبيرة من الأرض الخصيبة ذات المناخ المعتدل يجري فيها الجزء الشمالي من النيل بدون

عوائق أو مساقط موفراً لها أكبر قدر من انتظام أسباب الري والزراعة والنقل والمواصلات . تطل على بحرين عند ملتقى قارتين ، فكانت ، مثل كثير من أودية الأنهار ، ولكن بدرجة أفضل ، موطناً نموذجياً للحياة المستقرة على يسر النماء الزراعي والبناء الحضاري والتبادل التجاري مع ما حولها من أقاليم . فكانت بهذا كله ذات قوة جذب هائلة للجماعات القبلية الجائلة فيما يليها ، شرقاً وغرباً وجنوباً ، تغزوها ، أو تحاول أن تغزوها ، لا لتنهبها ثم تترد عنها ، شأن الغزاة في العصور القبلية بل لتستولي عليها ، وتستقر فيها .

حينما غزتها الجماعات القبلية الوافدة من الشرق بقيادة من أطلق عليهم المصريون اسم " الملوك الأجانب " أو " حقا خاسوت " الذي حرف في اللغة الأغريقية إلى " هكسوس " عام ١٦٧٥ ق . م استولوا عليها ، واستقروا فيها قرناً ( حتى عام ١٥٦٧ ق . م ) . وكانت منهم أسرتان حاکمتان هما الأسرة الخامسة عشرة والأسرة السادسة عشرة ، وثلاثة عشر ملكاً فرعوناً ، أولهم شيش ، وآخرهم أبيبي الثالث .

حينما غزتها الجماعات القبلية الوافدة من الغرب من نسل يوبو واوا اللببي عام ١٩٥٠ قبل الميلاد استولوا عليها واستقروا فيها قرنين ( حتى عام ١٧٣٠ ق . م ) ، وكانت منهم أسرتان حاکمتان هما الأسرة الثانية والعشرون والأسرة الثالثة والعشرون ، وأربعة عشر ملكاً فرعوناً أولهم شاشانق الأول وآخرهم أوسركون الرابع .

وحينما غزتها الجماعات القبلية الوافدة من الجنوب عام ٧٥١ قبل الميلاد استولوا عليها واستقروا فيها قرناً ( حتى عام ٦٥٦ قبل الميلاد ) وكانت منهم أسرة هي الأسرة الخامسة والعشرون ، وخمسة ملوك فراعنة : يغنجي وشاباكا وشهتاكا وطهرقا وتانون امانى .

وحينما غزتها التجمعات القبلية الوافدة من فارس تحت قيادة قمبيز عام ٥٢٥ ق . م استولوا عليها واستقروا فيها أكثر من قرن ( حتى عام ٤١٤ ق . م ) ، وكانت منهم أسرة حاکمة هي الأسرة السابعة والعشرون ، وخمسة ملوك فراعنة أولهم قمبيز وآخرهم دارا الثاني . وبعد أن طردتهم ثورة قادها الفرعون أمون حر لم يلبثوا أن عادوا إليها قبل يمضي نصف قرن ، فغزوها عام ٣٤١ ق . م واستولوا عليها واستقروا فيها قرناً آخر ( حتى عام ٢٣٢ ق . م ) ، وكانت منهم أسرة حاکمة هي الأسرة الحادية والثلاثون ، وثلاثة ملوك فراعنة أولهم ارتخشاشا الثالث ، وآخرهم دارا الثالث .

ثم جاء البطالمة فاستقروا فيها ثلاثة قرون ، ثم الرومان فاستقروا فيها أربعة قرون ، ثم البيزنطيون فاستقروا فيها نحو قرنين ونصف قرن ، ثم العرب عام ٦٤٠ ميلادية فاستقروا فيها وتعربت جملة ، ولم تنزل .

وهكذا فرضت جغرافية إقليم مصر على مصر مفهوماً مصرياً لأمن مصر ، أم وجودها وحدودها وأمن مبادلاتها ومواصلاتها . مؤداه : بما أن مصر - جغرافياً - ذات قوة جذب للغزاة من ناحية ، وبما أنها توفر لمن يغزوها أفضل أسباب الاستقرار فيها ، من ناحية ثانية ، فإن المواقع المناسبة للدفاع عن مصر تقع خارج حدودها الجغرافية في جميع الاتجاهات شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً . أو بصيغة أخرى إن خطوط الدفاع عن مصر تقع فيما يجاورها من أقاليم بعيداً عن حدودها . فيمكن القول ان جغرافية إقليم مصر وما يحيط بها من أقاليم قد فرضت على مصر أن تقوم ، فيما يحيط بها من أقاليم ، بدور دفاعي عن ذاتها .

١٨٦ - ويكاد تاريخ مصر الفرعونية أن يكون تاريخاً لهذا الدور . وأغلب ما عني ملوك مصر الفراعنة بتسجيله حفراً على جدران المعابد هو قصص خروجهم إلى جميع الاتجاهات لمواجهة التجمعات القبلية التي تجهز نفسها لغزو مصر ، وضربها ضربات وقائية مبكرة قبل أن تقترب منها .

أما في الشمال فنقرأ على جدران معبد الكرنك بعد أن استطاع الفرعون أحمس الأول ( ١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق.م ) طرد الهكسوس من مصر ، طردهم من جزيرة كريت ، وأراد أن يكرم جدته الملكة " أعج حوتب " للدور العظيم الذي قامت به في تعبئة الجيوش وتحريضها على القتال فيسُميها ملكة كريت . ونقرأ على جدران معبد الرمسيوم في الأقصر مأمراً بحفره الفرعون رمسيس الثاني ( ١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق.م ) ثباتاً للبلاد التابعة لمصر ، من بينها قبرص وكريت .

أما في الغرب ، فمنذ بداية التاريخ المكتوب تذكر الآثار أن فرعوناً من الأسرة الثانية اسمه خع سخم أو حورس ، لا يعرف أحد تاريخ حكمه ، قد خرج من مصر لمقاتلة القبائل الليبية التي تهددها . وتحكي بردية سنوهي مأساة اغتيال الفرعون العظيم أمنمحات ( ١٩٩١ - ١٩٦١ ق.م ) فنقول إن أعداءه تمكنوا منه وقتلوه ، منتهزين فرصة غياب ابنه وولي عهده وقائد جيشه سنوسرت ، إذ كان قد أرسله قائداً لحملة للقضاء على التجمعات القبلية التي تجهز نفسها لغزو مصر في قواعدها في ليبيا . وتحكي الآثار أن امنحوتب الأول فرعون مصر ( ١٥٤٦ - ١٥٢٦ ق.م ) قد أرسل جيشاً كبيراً بقيادة " أحمس أباتا " إلى ليبيا لتشتيت القبائل المتجمعة هناك تستعد للسير على مصر . وعلى جدران معبد الكرنك يسجل الفرعون سيتي الأول ( ١٣٠٣ - ١٢٩٠ ق.م ) قصة مثيرة عن خطر مزدوج المصدر من الشرق والغرب . فقد اجتاحت الشرق قبائل هندو - آرية فهاجرت قبائلها مطرودة بحراً ولجأت إلى شاطئ شمال أفريقيا . فلما أن تجمعوا هناك تعرّضوا لقوة جذب النماء والرخاء والاستقرار في مصر ، فاتجهوا إليها ، فخرج إليهم الفرعون سيتي الأول وطاردهم .

وتشهد بقايا الأواني الفخارية التي اكتشفت في الخرطوم وغرب السودان وفي قريتي البداري في صعيد مصر ( أسبوط ) أن علاقة مصر بالجنوب ترجع إلى العصر النيوليتي ( العصر الحجري الحديث ) أي إلى ما قبل ٤٠٠٠ سنة ق.م . وعلى صخور جبل الشيخ سليمان على مقربة من بوهن ، أمام وادي حلفا ، نقرأ نبأ وصول جيوش مصر بقيادة الملك الفرعون اتي الثاني من ملوك الأسرة الأولى ، لتأمين طرق التجارة مع الجنوب . ويحكي لنا الرحالة الفرعوني حرخوف في تاريخ حياته المسطور على واجهة قبره في أسوان أنه صاحب حملة قادها أبوه إلى الجنوب ، وأنه قاد هو نفسه ثلاث حملات متتالية بأمر من الفرعون بيبي الأول ( ٢٤٠٢ - ٢٣٧٧ ق.م ) . وبينما ذهبت الحملات إلى بلاد لم يعرفها أحد من قبل - كما قال - خصص قصة الحملة الثالثة التي تمت في عهد بيبي الثاني لنبا عثوره على قزم حي وإبلاغه فرعون النبا ، ويورد رسالة الفرعون إليه أن " تعال إلى الشمال . تعال سريعاً إلى القصر ، واحضر معك هذا القزم الذي جنبت به من أرض الأرواح حياً سالماً وفي صحة جيدة ليرقص للإله " . ولم يكن ذلك غريباً ، فقد كان بيبي الثاني طفلاً . ولكن الفرعون الطفل قد أصبح فرعوناً شاباً فأدرك أن دور مصر في الجنوب ليس لهواً ولعباً بالأقزام ، بل مسألة حياة أو موت ، فمنه يجري شريان مصر ( النيل ) . فأرسل إلى الجنوب قائده بيبي لنخت ليؤدي دوراً آخر ذكره القائد في سجل تاريخ حياته المحفور فقال : " أرسلني جلالة مولاي لأؤدب بلاد أرثت ففمت بما جعل مولاي يثني عليّ ، وقتلت منهم عدداً كبيراً ، من بينهم أبناء الزعماء ورؤساء المحاربين واحضرت منهم أسوأ إلى القصر . كان عددهم عظيماً لأنني كنت شجاعاً ومعني جيش كبير من الجنود الأشداء " . وحيث توجد كرمة في السودان أسس امنمحات الأول ( ١٩٩١ - ١٩٦١ ق.م ) مركزاً للتجارة تحرسه قوة مرابطة في حصن شيده في سمنه جنوبي الشلال الثاني . ثم توالى الحصون فأصبحت سبعة عشر حصناً ، ترابط فيها قوات تحرس النيل وتدافع عن مصر عند خطوط على بعد مئات الكيلومترات من حدودها . ومع ذلك فليست العبرة بالسّن دائماً ، فما أن تتعرض حصون مصر وخطوط تجارتها في الجنوب لخطر ناشئ حتى يخرج إلى حيث موقع الخطر الفرعون الصغير امنحوتب الأول ( ١٥٤٦ - ١٥٢٦ ق.م ) ويعيد الأمن إلى مصر بمعارك ناجحة في السودان . أما الفرعون تحوتمس الأول ( ١٥٢٥ - ١٤٩٥ ق.م ) فقد مد حدود حكمه إلى السودان وعين

حاكماً له فرعوناً أسماه " الأبن الملكي لكوش " ، وأصبح محرماً على من هم جنوب تلك الحدود عبورها إلى الشمال . وحينما حاول أمراء قبائل كوش تحدي تلك الحدود هزموا ، واستقبل تحوتمس قادة جيوشه المنتصرة وكرمهم في أسوان . ثم تحوتمس الثالث ( ١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق . م ) ، الذي قاد بنفسه حملة إلى السودان وبقي هناك سبعة أشهر يقاتل القبائل التي تهدد مصر وتجارها ، ولم يعهد بذلك إلى أحد قواده ، بالرغم من أنه كان قد قارب السبعين من عمره . أما الفرعون امنحوتب الثالث ( ١٤٣٦ - ١٤١١ ق . م ) فإن تمثاله في قرية النجعة ، على مقربة من شندي شمال الخرطوم شاهد على اين كان يدافع عن مصر و . . إلى آخر . .

أما عن الشرق فقد خرج إلى الشرق قائداً منتصراً وعائداً الملك الفرعون ساحورع من الأسرة الخامسة ( ٢٥٥٣ - ٢٥٣٩ ق . م ) وببني الأول من الأسرة السادسة ( ٢٤٠٢ - ٢٢٧٧ ق . م ) الذي طاردت قواته بقيادة البطل العسكري " ونى " التجمعات القبلية ثم دحرتها عند جبال الكرمل . وامنحات الأول ( ١٩٩١ - ١٩٦١ ق . م ) من الأسرة الثانية عشرة الذي أراد أن يحصن حدود مصر الشرقية نهائياً ، فبنى على طول الحدود سوراً فرعونياً عظيماً لم يصمد طويلاً فاضطر أحد خلفائه سنوسرت الثالث ( ١٨٧٩ - ١٨٤١ ق . م ) إلى أن يطهر كل شرقي البحر الأبيض المتوسط ، وأن يترك هناك فصائل تجوب الشواطئ وتراقب الطرقات وتتنذر مبكراً بأي مشروعات غزو لمصر . وأحمس ( ١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق . م ) يطرد الهكسوس من مصر ، ويتعلم من الجغرافيا ، فيعلم أنهم لن يكونوا قد خرجوا من مصر إلا إذا خرجوا من فلسطين ، فيخرجهم منها .

فتعلم الجغرافية فراعنة مصر أن هذا البعد لا يكفي فيأتي تحوتمس الثالث ( ١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق . م ) وما ان يصل إليه نبأ وصول قوات قادش مدينة مجدو في سورية ، حتى يعتبر ذلك اعتداء على حدود أمن مصر فيخرج إليهم ويقاتلهم ويدمرهم في مدينة نوخاشش الجاورة لمكان حلب الحالية .

ويواصل حملاته دفاعاً عن أمن مصر التي بلغت ست عشرة حملة مطاردة أوصلته إلى الفرات . ويفكر ذلك الفرعون العبقري فيما سيصنعه التاريخ بعده بعشرات القرون . إن التأخي وليس القهر هو الذي يحفظ أمن مصر . فيجمع أبناء ملوك القبائل التي قهرها وأولياء العهود فيها ويحملهم إلى مصر ويحشدهم مع أبنائه في قصوره ويؤاخي بينهم ليتعلموا جميعاً أن أمن مصر هو أمن جيرانها وأنها لا تغزوهم إلا مضطرة فإن تحالفوا على التعاون لرد المخاطر عنهم جميعاً فهذا يكفي مصر أمناً . وقد كان : عاد أولياء العهود أخوة وأصبحوا ملوكاً وقادة ، وحالوا دون أن تكون مواطنهم مراكز تجمعات تهدد مصر ، فنعمت مصر بفترة طويلة نسبياً من الأمن والهدوء والرخاء والتقدم الحضاري الذي تجاوز أمور الدنيا إلى أمور الدين ، فأنجبت امنحوتب الرابع ( ١٣٧٠ - ١٣٤٩ ق . م ) الذي أنهى عبادة امون وأشاد بعبادة آتون ( الشمس ) وحمل لقب أختاتون فكان أول الموحدين من فراعنة مصر . وفي عهده اكتمل مفهوم أمن مصر : فهو إدراك لمواطن الخطر عليها في مواقعه وليس عداءً لمواطني تلك المواقع . فحين تجمع على حدود مصر الشرقية جلّ مواطني سورية وفلسطين يريدون دخولها ، وتبين القائد الفرعوني حورمحب أن جيوش ملكة خيتا قد غزت ديارهم وطردتهم وطاردتهم حتى حدود مصر ، فتح لهم الحدود ، وأوتهم مصر وعقدت معهم ما يمكن أن يسمى " معاهدة دفاع مشترك " فكونوا جيشاً مشتركاً خرج إلى حيث مواقع الخطر المشترك وقضى على جيوش خيتا . فلما تحررت سورية وفلسطين أمنت مصر . وكانت تجربة علمت الجميع ما يمكن أن نسميه المصير المشترك مدخرين تعبير وحدة المصير إلى مرحلة تاريخية لاحقة . كذلك حين عادت جيوش ملكة خيتا إلى الاستعداد لغزو مصر وجمعت له من استوردهم قائدهم المسمى موتلي من جند المرتزقة من سكان بحر ايجه ( اليونان ) وإمارات آسيا الصغرى ( تركيا ) ، وخرج إليهم رمسيس الثاني ( ١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق . م ) كادت الدائرة تدور على جيش فرعون المصري وفرّ كثير من جنده ، وباتت الهزيمة وشيكة وأصبح مصير مصر ذاتها معلقاً على نجدة من الحلفاء ، فتقدم لنجدتها الوف من شباب فلسطين مكونين تشكيلاً عسكرياً يطلق عليه في الآثار اسم "

ثبارونا " ويعني " فرقة الشيبية " ، وناصروا رمسيس الثاني فانتصر ، وأنقذت مصر وفلسطين وسورية معاً . وحينما بدأ الخطر الآشوري يدق أبواب سورية كرر المصريون والفلسطينيون التجربة الناجحة فشكّلوا جيشاً مشتركاً بقيادة الفرعون المصري تفت نخت ( ٧٣٠ - ٧٢٠ ق . م ) وخرجوا معاً في هذه المرة للدفاع عن سورية ، دفاعاً عن فلسطين ومصر . . . . . وحين انهزموا استولى الآشوريون على سورية وفلسطين ومصر أيضاً .

١٨٧ - نستطيع ، بدون خسارة كبيرة ، أن نسقط من حديثنا قرون الحكم البطلمي والروماني والبيزنطي جميعاً فخلالها جميعاً أصبحت مصر مجرد أداة تؤدي الدور الذي يختاره لها من لهم السيطرة والحكم ، وقطعت هذه السيطرة نموها الحضاري مرة أخرى ، فأبقت سكان مصر شعباً لم يتطور أمة . وسيبقى كذلك إلى أن نصل إلى الفتح العربي عام ٦٤٠ ميلادية .

١٨٨ - لم يكن غريباً أن يتم الفتح العربي لمصر بسهولة . ذلك لأن البيزنطيين لم يتعلموا من الجغرافية ما تعلمه الفراعنة . فقد تم الفتح العربي لسوريا عام ٦٣٦ ميلادية . وهو الإنذار الذي ماكان أي فرعون مصري يسمعه حتى يعبىء قواته ويخرج من مصر إلى حيث تتجمع النذر لتؤدي مصر دور الدفاع عن ذاتها في المواقع التي حددتها الجغرافية . لم يفعل البيزنطيون هذا ، بل تحصنوا في بابلون جنوبي القاهرة ، وهم يسمعون نبأ دخول عمرو بن العاص على رأس أربعة آلاف مقاتل لاغير ، من العريش حتى الفرما (شرق بور سعيد حالياً) حتى بلبس ؛ لتدور أول معركة بينهم في عين شمس ضاحية القاهرة . فطلب عمرو بن العاص مدداً . وبينما عاد البيزنطيون إلى حصن بابلون اجتاح عمرو بن العاص على مرأى ومسمع منهم الدلتا واخترقها ، واستولى على الفيوم ، ثم عاد شرقاً ، فعبر النيل ليلتقي بالمدد الذي جاء وحاصر البيزنطيين في حصنهم ، واستولى عليه بعد سبعة أشهر قبل أن يتوجه إلى الاسكندرية ، العاصمة . فيعود البيزنطيون إلى الخطأ ذاته . خطأ تصور إمكان الدفاع عن مصر من داخل مصر ، أو ردّ الذين يتمكنون من دخولها فعلاً ، فيتحصنون في الاسكندرية فيتركهم عمرو بن العاص محاصرين ويوجه قواته إلى صعيد مصر فيفتحه . مات الامبراطور الغبي هرقل عام ٦٤١ م والاسكندرية محاصرة . وخلفه كونستانز الثاني ، الذي تبين أن قد تم الفتح العربي لمصر منذ أن تم الفتح العربي لسورية ، وسبق السيف العزل ، فطلب الصلح ، فأبرم معه عمرو بن العاص اتفاقاً منحه به فرصة عام للانسحاب من الاسكندرية . ولقد انسحب البيزنطيون في نهاية العام ( ايلول / سبتمبر ٦٤٢ م ) بعد أن حملوا معهم ما بقي ، بعد الذي أخرجوه في سنة الهدنة ، ودخلها العرب بدون قتال . مهلة العام هذه تكذب تكذيباً قاطعاً ما قيل من أن العرب قد حرقوا مكتبة الاسكندرية . فالذين يحرقون عادة هم المنسحبون منها وليس المتقدمون إليها .

على أي حال ، من بداية الفتح العربي ، وعلى مدى ثلاثين عاماً فقط ، تؤدي مصر دور نقطة الانطلاق إلى شمال أفريقيا . أي حتى بنى عقبة بن نافع مدينة القيروان لتصبح هي مركز التجمع وقاعدة الانطلاق إلى ما يليها غرباً .

### الانتماء القومي

١٨٩ - هنا يبدأ دور مصر في التطور ، فيتغير نوعياً ابتداء من الفتح العربي : فيبعد ستين سنة فقط تصبح اللغة العربية هي لغة مصر . ابتداء من عام ٧٠٦ م على وجه التحديد . ويدخل الناس في دين الله أفواجا . ويعفي التاريخ مصر مما فرضته الجغرافية فلن تدافع عن ذاتها بعد ذلك . لقد أصبحت جزءاً في موقع القلب من الامبراطورية العربية الاسلامية . تحيط بها أقطار بعدها أقطار ، تباعد بينها وبين مساح المعارك الضارية التي لم تنقطع على حدود الامبراطورية شرقاً وشمالاً وغرباً . وطالما كانت القيادة المركزية في دمشق أو في بغداد قادرة على الدفاع عن حدود الامبراطورية التي انتقلت إليها حدود مصر

، كانت مصر تؤدي دور الشريك في الدفاع عن الدولة المشتركة . وقد بدأت في اداء هذا الدور منذ وقت مبكر في أول معركة حربية خاضها أسطول عربي ضد البيزنطي ، في عهد الخليفة عثمان بن عفان عام ٦٥٥ م بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، المعروفة بمعركة ذات الصواري البحرية . إلا أنها قامت أساساً ، وعلى مدى قرون بدور المينقر الأمن الذي يجذب إليه بناء الحضارة من الفقهاء والعلماء والصناع ، ودور القاعدة الآمنة التي تعبأ فيها الجيوش وتبنى فيها الأساطيل ، وتخزن فيها الإمدادات ، المؤهلة بهذا كله لتصبح عاصمة آمنة للدولة العربية الإسلامية وهو ما فطن إليه الفاطميون حين انطلقوا من أقصى الغرب يريدون الخلافة ، فما ان بلغوا مصر حتى شيّدوا القاهرة واتخذوها عاصمة ، وما اضطر إليه الخلفاء العباسيون بعد سقوط بغداد عام ١٢٥٨ م ، فاتخذوا من مصر مقراً للرمز الباقي لوحدة الدولة .

أما حين تضعف السلطة المركزية فقد كانت مصر تعود إلى دورها الدفاعي ولكن بصيغة صنعتها الجغرافية والتاريخ معاً . فهي لم تقم بالدفاع عن ذاتها منفردة أبداً ، بل موحدة القوة مع أكثر من قطر عربي آخر ، ومع سورية على الدوام . وقد بدأ هذا الدور حينما غلب الترك الخلافة العباسية على أمرها .

استشعر أحمد بن طولون حاكم مصر الخطر ، فتجاهل الخليفة المعتمد ، ووجد مصر وسورية عام ٨٧٧ م . وحين تسقط الأسرة الطولونية ستعود مصر وسورية إلى سلطة الخلافة ، ولكن موحدين عام ٩٠٥ م . وفيما عدا سنوات معدودات من الانفصال ، نتيجة انتقال الولاية من حاكم إلى حاكم ، ستبقى مصر وسورية موحدين نحو ستة قرون ونصف قرن ، أي من عام ٨٧٧ م حتى الغزو العثماني عام ١٥١٧ م . وستتضم الحجاز واليمن إلى هذه الوحدة تحت قيادة محمد بن طغج الإخشيد من عام ٩٢٥ حتى عام ٩٦٩ م . ثم سينضم المغرب العربي إلى مصر والشام والحجاز واليمن حين تصبح القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية لتبدأ من عام ٩٦٩ م حتى عام ١١٧١ أي لمدة قرنين . ويسقط حكم الأسرة الفاطمية وتعود الأسرة العباسية إلى ولاية الخلافة على كل تلك الأقطار موحدة ابتداء من حكم صلاح الدين ومن بعده ما يستحق الانتباه .

إننا نحن العرب نحب أن نتذكر صلاح الدين البطل العربي ويجدر بنا أن نعرف لماذا انتصر ولماذا هزم ، وما دور مصر في الحاليتين . ونحن نعرف أن سورية قد انفصلت عن مصر على أثر وفاة السلطان نور الدين محمود . ولقد حاول صلاح الدين حاكم مصر ، بمصر وحدها ، أن يتحدى الصليبيين مرتين فانهزم في المرتين الأولى عام ١١٧١ م والثانية ١١٧٣ م . هزمه أقل ملوك الصليبيين شأناً ، حاكم إمارة مونتريال الصليبية . وقد أدرك صلاح الدين أسباب الهزيمة فأدرك أسباب النصر ، فظّلّ يجهز للنصر أسبابه أربع عشرة سنة . انطلق أولاً إلى دمشق ، وهناك هزم الملك الصالح بالقرب من حماة يوم ١٣ نيسان / ابريل ١١٧٥ وصقّى قلاع الحشاشين الطائفية المتناثرة في سورية وأعادها إلى الوحدة . بعد هذا ، وليس قبله ، استطاع أن يتحدى الصليبيين في معركة حطين بجيش عربي شاركت فيه مصر وقاده حاكمها صلاح الدين ، وليس بجيش مصري ولو كان بقيادة صلاح الدين ، فحرر القدس يوم ٢ تشرين الثاني / اكتوبر ١١٨٧ م . ومن بعد صلاح الدين ، سيقود قطز ، حاكم مصر ، جيشاً عربياً يهزم المغول في معركة عين جالوت في أيلول / سبتمبر ١٢٦١ م . وتصبح القاهرة ابتداء من العام التالي ، ولمدة ثلاثة قرون ، مقر الخلافة وعاصمة الدولة بعد أن سقطت بغداد عام ١٢٥٨ م . وتؤدي مصر بكفاءة دور القاعدة والقائدة في تحرير الوطن العربي من بقايا الإمارات الصليبية فيحرر الجيش العربي بقيادة الظاهر بيبرس الكرك وقيسارية وأرسوف وصفد ويافا وأنطاكية ، ويحرر الجيش العربي بقيادة قلاوون عكا وصور وحيفا وبيروت . فينتهي الاغتصاب الصليبي عام ١٢٩١ م .

١٩٠ - كل هذا يستحق الانتباه لأنه مؤشر إلى ما كان التاريخ يصنعه بمصر منذ الفتح العربي . لقد دخلت مصر بالفتح العربي طوراً جديداً من تاريخها الطويل ، فخلقت من جديد . بدأ هذا الخلق التاريخي العظيم جنيناً في مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام . وفي مجتمع المدينة نبتت بذرة الأمة

العربية . تحولت القبائل إلى شعب . وتحول الأعراب إلى عرب . واختصوا دون غيرهم بمدنيتهم فأصبحت لهم وطناً ؛ وانشأوا فيها دولتهم . أول حاكم لها محمد بن عبد الله وأول دستور لها " الصحيفة " التي أقامت نظاماً عاماً للعلاقات الداخلية والخارجية ملزماً لكل المواطنين فيها ، مسلمين وغير مسلمين ، على أساس وحدة الدفاع عن الوطن الواحد .

ثم انطلق العرب بالإسلام إلى ما يجاورهم فالتقوا واختلطوا بمجتمعات كانت قد تجاوزت الطور القبلي واستقرت شعوباً متجاورة ، ولكن السيطرة الفارسية والرومانية عليها جميعاً ، قرونًا عدة كانت قد أوقفت نموها فلم تتحول إلى أمم متجاورة . الحميريون في جنوب الجزيرة العربية تحت السيطرة الحبشية أم الفارسية منذ عام ٥٧٥ م حتى ظهور الإسلام . الغساسنة في الجزء الشمالي الغربي وما يحيط بتدمر في سورية تحت السيطرة البيزنطية منذ القرن الثالث الميلادي حتى ظهور الإسلام . القبائل العربية من بني لخم في الجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة فيما كان يعرف باسم " العراق العربي " تحت السيطرة الفارسية . كل الشعوب فيما بقي من سورية وفلسطين ثم مصر غرباً ، حتى شاطئ المحيط الأطلسي مستقرة متجاورة على الأرض ، عبيداً فيها ، بمعنى الكلمة ، للرومان منذ قرون عديدة . . . .

فجاء الفتح العربي الإسلامي ليحررهم جميعاً ، ويرفع عنهم قيود العبودية أولاً ، ثم يلغي الحدود فيما بينهم ثانياً ثم يقدم لهم لغة مشتركة ثالثاً ثم يعرض عليهم عقيدة أرقى من عقائدهم ، رابعاً . ثم ينظم حياتهم جميعاً طبقاً لقواعد عامة واحدة ( الشريعة الإسلامية ) ، خامساً ؛ ثم يتركهم قرونًا في حماية دولته ضد أي تهديد خارجي ، فيتفاعلون تفاعلاً حراً فيما بينهم ، ومع الأرض المشتركة قرونًا متصلة بدون حدود أو سدود أو قيود على حرية الانتقال والمتاجرة والعمل والتعليم والتعلم ، سادساً . ثم يشركهم معاً في الدفاع عن حدود الدولة المشتركة ، وفي الجهاد من أجل العقيدة المشتركة ، حتى إذا ما اشتركت أربعة أجيال متعاقبة منهم في الدفاع ضد الغزو الصليبي الذي استمر قرابة خمسة قرون من الحياة المشتركة ، كان الشعب قد أصبح واحداً ، وأصبح الوطن واحداً وارتفع بناء الحضارة الواحدة ، وتاهت الأنساب ، واندثرت المواطن الأولى وانتشر البشر على اتساع الوطن الواحد ، فأصبحوا جميعاً أمة عربية واحدة ؛ ولم تعد مصر جارة للعالم العربي ، ولا حليفاً في الدفاع ضد الخطر المشترك ، ولا شريكاً في مصلحة عابرة ، بل أصبحت جزءاً من الأمة العربية التي صنعها التاريخ ولم يصنعها أحد على عينه ( راجع فقرة ٢٢ وما بعدها ) .

١٩١ - الأمة العربية وجود موضوعي غير متوقف وجوداً أو عدماً على إرادة أحد . فمصر جزء من الأمة العربية بدون توقف على إرادة أحد من مصر أو من غير مصر . كما أن العربي عربي ولو كره ذلك . هكذا تعلمنا من أسانذتنا الرواد . ثم أضفنا أن مجرد هذا الوجود القومي دليل موضوعي غير قابل للنقض ، على أن ثمة روابط وأسباباً موضوعية ، قد نعرفها ، وقد لانعرفها ، توحد مصير الأمة ، بحيث يكون من العبث الفاشل أن يحاول أي عربي ، أو جماعة عربية ، أو قطر عربي ، أن يفلت بمصيره الخاص من مصير أمته . سيفشل حتماً ولو في المدى الطويل . روابط وأسباب موضوعية قد نعرفها إذا درسنا تاريخنا وواقعا لنكتشفها لالختلقها فإذا لم ندرس فإننا نكتشفها - بسهولة - في خلاصتها الحضارية . في ذلك الشعور بالانتماء القومي إلى الأمة العربية الذي ما يزال يحدد مواقف عشرات الملايين من العرب البسطاء ، الذين لم تتح لهم فرص التعليم والدراسة . ثم اننا نكتشفها كل يوم من مواقف غيرنا منا . فنحن عندهم عرب بصرف النظر عن أقطارنا ، سواء كانوا أعداء لنا أم حلفاء وأصدقاء ، وسواء أعجب هذا الانتماء أحداً منا أم لم يعجبه .

١٩٢ - في قلب هذا الوجود القومي يعيش ثلث الشعب العربي في مصر ، وتختزن فيها أنضج عناصر الحضارة العربية الإسلامية من العلوم والآداب والفنون والخبرة المتركمة اقتصادياً وسياسياً ، وتتمتع بأكبر قدر من التجانس الاجتماعي بفضل احتضان الأمة العربية لها وحمايتها من آثار التخريب العشائري

والطائفي الذي أحدثته الاعتداءات الشعبوية على أطراف الأمة العربية . فهي القاعدة لأية تعبئة قومية . وهي القائدة لأية مسيرة قومية . وهي الرائدة لأية نهضة قومية . وهي كما وصفها بحق الأديب المؤرخ الفرنسي بنوا ميشان في كتابه **الازدهار العربي** بأنها " مخّ العرب " الذي يتلقى من كل أعضاء الجسم ما تحسه وتعانيه ، فيدرك ، ويوجّه أعضاء الجسم فيستجيب . اعجبني هذا التشبيه لأن المخّ بدون أعضاء في جسم واحد قطعة من اللحم الرخو سريع التلف . كما أن الأعضاء في جسم واحد تختل حركاتها وتطيش ، وقد تهلك ، إذا ما فقد المخ ملكة الإدراك السليم أو " غسله " أحد من تراثه وحشاه فكراً غريباً عن تكوين الأطراف .

١٩٣ - هكذا سيكون دور مصر في الوطن العربي منذ صلاح الدين حتى أواخر القرن التاسع عشر ، لن تتأثر كثيراً بتنازع الأسر على تولي الخلافة . فقد بقيت تؤدي دورها كجزء من الأمة العربية ، وولاية الخلافة للأسرة الفاطمية ثم العباسية ، ثم العثمانية . انتهت ولاية الخلفاء الفاطميين في مصر ظهر يوم الجمعة . سمع المصلون خطباء المساجد يدعون للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي بأمر من صلاح الدين فأنتهى الأمر . وحين تولت الأسرة العثمانية الخلافة بعد هزيمة الجيش العربي في معركة برج دابق يوم ١٢ آب / اغسطس ١٥١٦ م ودخول مصر في كانون الثاني / يناير ١٥١٧ ، وعزل الخليفة العباسي لم يتغير شيء من مصر . اكتفى العثمانيون بأن يحصلوا على ربع حصيلة الضرائب ، وبأن يولوا الولاية لجبايتها . وبعد أربعة قرون لم يتركوا بها أثراً سوى مسجدين مفرطين في تواضع العمارة أحدهما مسجد السنانية في بولاق الذي بناه سنان باشا عام ١٥٧١ م والآخر مسجد " أبو الذهب " الذي انشئ عام ١٧٧٤ م . ثم انهم فصلوا إدارة سورية عن إدارة مصر لأول مرة بعد ستة قرون ونصف قرن . ولكنهم لم يستطيعوا أن يعزلوا مصر عن الأمة العربية ، ولم يقبل الشعب العربي في مصر حتى الفواصل الإدارية . فما ان يتولى الأمر حاكم قادر حتى يلغي تلك الفواصل وينزع نزوعاً يكاد يكون غريزياً إلى الوحدة العربية . وما هي إلا استجابة لروابط موضوعية تشد أجزاء الأمة الواحدة بعضها إلى بعض . هكذا حاول أن يفعل محمد علي ابتداء من ١٨١٥ ، وهكذا ستكون مصر مأوى العرب الأحرار الهاربين إليها من القهر الطوراني حينما يستولي الترك على الدولة فيحولونها من دولة مشتركة ( امبراطورية ) إلى دولة مهيمنة ( استعمارية ) ، فيأتي رد الفعل العربي متدرجاً من طلب المساواة ، إلى طلب اللامركزية ، إلى طلب الانفصال ، إلى الوحدة العربية .

لقد كنا نقول هذا ونرده ونبشر به وندافع عنه على مدى ربع قرن في كتب منشورة ابتداء من عام ١٩٦٥ . وما كان يجرؤ على إنكاره الا القليل يوم أن كانت مصر تؤدي دورها المنتصر كقاعدة ورائدة تحت راية عبد الناصر . ومن فوق قمة النصر في شباط / فبراير ١٩٥٨ لم ينسب عبد الناصر النصر إلى مصر ، بل إلى الأمة العربية . سئل عما يتوقع أن يحدث للعرب لو أنه مات فقال لسائله : " هل تظن أنني أنا الذي خلقت القومية العربية ؟ . . . أبداً . ان القومية العربية هي التي خلقتني . لست أنا الذي أثيرها بل هي التي تحملني . إنها قوة هائلة ولست أنا أداؤها . ولو لم أكن موجوداً لأوجدت واحداً ، عشرة ، ألفاً غيري ، يحلون محلي . ان القومية العربية لا يمثلها رجل واحد أو مجموعة من الرجال ، انها لا تتوقف على جمال عبد الناصر ولا على الذين يعملون معه . إنها قوة كامنة في ملايين العرب الذين يحمل كل منهم شعلة القومية . إنها تيار جارف ، ولا تستطيع أية قوة في العالم ، ولن تستطيع ، تحطيمها طالما احتفظت بالثقة في ذاتها " .

نعم . " طالما احتفظت بالثقة في ذاتها " . هكذا قال عبد الناصر رحمه الله .

ولكن كثيرين كانوا لا يتفون في القومية العربية بالرغم مما كان يقول أكثر حكام العرب في التاريخ تجربة وأغناهم خبرة بدور مصر في الوطن العربي . بل كانوا يرجعون الالتقاء تحت الراية المنتصرة إلى جاذبية النصر ذاته بدون أن يتوقفوا للرد على السؤال : ولماذا لا يلتقي العرب تحت راية منتصرة إلا أن

تكون راية عربية ، ومن حولهم أمم كثيرة انتصرت فلم يلتقوا تحت رايتها ؟ على أي حال لقد قدم التاريخ الدليل الحاسم على وحدة المصير من الردة فالقطيعة فالعزلة فالعداء بين مصر السادات والوطن العربي فما الذي جرى ؟ . لأحد ينكر الآن ما جرى لا في مصر ولا في باقي الوطن العربي .

حينما تكف مصر عن دور الجزء من الأمة العربية تنقلص إلى حد الشلل مقدره بقية الأجزاء عن أداء دورها ، فتنقلص إلى حد الشلل مقدره مصر ذاتها على أن تؤدي الدور الذي اختارته ، فتكاد تنهار كل القوى في الوطن العربي بما فيها مصر . المسألة - إذن - ليست مسألة قيادة فذة وقيادة شادة ، ولا مسألة انتصار أو انكسار ، بل هناك تحت جلد الوطن العربي شبكة من الروابط الموضوعية التاريخية التي تقاوم تجزئة الأمة الواحدة ، وتحافظ على وحدتها ، وتوحد مصيرها ، وتعلم من لا يريد أن يتعلم أن غاية شرود الجزء من الكلّ الفشل والشلل للأجزاء جميعاً .

هذا من التاريخ ، فماذا من البحث العلمي ؟

### اتجاهات الشباب العربي

١٩٤ - في عام ١٩٥٣ تكونت في القاهرة " جماعة البحوث الحضارية المقارنة " بقصد القيام بدراسة مقارنة عن اتجاهات الشباب في كل من مصر ولبنان والعراق وسورية والأردن والولايات المتحدة الأمريكية . وكانت تضم مجموعة ممتازة من العلماء والخبراء والباحثين وأساتذة علم الاجتماع وعلم النفس المتخصصين ، من بينهم ١٣ من مصر ، و٩ من لبنان و٣ من العراق و٣ من سورية و١٤ من الولايات المتحدة الأمريكية . وضمت إليها من غير أعضائها هيئة استشارية من تسعة خبراء ثلاثة من مصر ، واثنين من لبنان ، وواحد من العراق ، وثلاثة من الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم ألحقت بها جماعة من المساعدين من كل دولة من الدول ميدان البحث .

بدأ جمع البيانات الرئيسية للبحث عام ١٩٥٥ بتسهيلات كريمة من الحكومات والجامعات ومعاهد التعليم والاختصاصيين في تلك الدول . واستعملت في جمعها وتحليلها واستنباط النتائج منها أرقى مناهج البحث الميداني والتحليل العلمي . وبعد جهد متصل استمر نحو ست سنوات نشرت الدراسة ونتائجها في القاهرة عام ١٩٦٢ تحت إشراف د . محمد عثمان نجاتي ، عضو الجماعة وأستاذ علم النفس في جامعة القاهرة حينئذ ، كما سلمت نسخة منه إلى الفريق الأمريكي .

جاء في مقدمة الدراسة المنشورة عن منهجها الذي اسموه " النهج الحضاري المقارن " : " إن مشكلة استقلال الحالات التي يتناولها البحث الحضاري المقارن من المشكلات الهامة التي يجب أن يحتاط لها في تصميم البحوث الحضارية المقارنة . وهناك رأيان متطرفان في هذا الصدد رأي يذهب إلى أنه إذا كان هناك مجتمعان مستمدان من أصل واحد ، أو إذا أخذ أحدهما عن الآخر بكثرة ، فلا يجب اعتبارهما حالتين مختلفتين بل حالة واحدة . ورأي آخر يذهب إلى أنه مادام المجتمعان مستقلين سياسياً فإنهما يعتبران مستقلين كأى فردين في مجتمع واحد . إن هذه المشكلة كما يقول هوايتنج مشكلة معقدة ولم تحل بعد حلاً كاملاً . وفيما يتعلق بالبلاد العربية التي تتناولها البحث الحالي فإن كل شخص وثيق الصلة بهذه البلاد لابد أن يلاحظ أن الروابط التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية بينها وثيقة جداً . ولكن بالرغم من هذه الروابط فإن هذه البلاد ليست متشابهة في جميع ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفي المشكلات السيكولوجية والاجتماعية التي تصادف الشباب في كل منها . فلا شك أن الاستقلال السياسي لهذه البلاد وتعرضها لبعض المؤثرات الداخلية والخارجية المختلفة قد أوجد فروقاً في بعض المتغيرات التي يقوم البحث بدراستها . ومثل هذه الفروق توجد عادة بين أفراد المجتمع الواحد . ولذلك فإننا نميل في

هذا البحث إلى اعتبار هذه البلاد العربية المختلفة سياسياً وحدات حضارية مستقلة يمكن أن تعقد المقارنة بينها " .

واضح من هذا التقديم أن " جماعة البحوث الحضارية المقارنة " في اتجاهات الشباب لم تقطع برأي فيما إذا كانت الأقطار العربية الخمسة التي اختارتها تنتمي إلى أصل حضاري واحد ، بحكم ما هو ملحوظ من أن الروابط التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية بينها وثيقة جداً ، أم أن كلاً منها يعتبر وحدة حضارية مستقلة عن الأخريات بحكم استقلالها السياسي وما ترتب عليه من فروق في الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وفي المشكلات السيكولوجية والاجتماعية التي تصادف الشباب في كل منها .

لم تقطع برأي ولكنها " مالت " إلى اعتبار الأقطار العربية وحدات مستقلة .

على هذا الأساس " المائل " استمر جمع البيانات والبحث والدراسة والتحليل واستنباط النتائج الخاصة بكل قطر عربي على حدة بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وسجلت وثائق البحث في جداول كثيرة ومتنوعة أدق الفروق الفردية والتفصيلية بين اتجاهات الشباب من الذكور والنساء ، من المتعلمين والأميين ، من العاملين والعاطلين ، من سكان المدن وسكان الريف وسكان الصحارى من المسلمين والمسيحيين . . . باختصار لم تترك وجهاً للمقارنة إلا درسته . وكان المفروض ، اتساقاً مع الاختبار الثابت في المقدمة ، أن تتم مقارنة النتائج بين اتجاهات الشباب في ست دول . خمس عربيات وواحدة أمريكية . ولكن النتائج لم تقبل ميل الجماعة . النتائج الموضوعية لم تقبل الاختيار الذاتي . إذ انتهى البحث إلى أن يكون مقارنة ثنائية بين الأقطار الخمسة العربية من جانب والولايات المتحدة الأمريكية من جانب . وعللت الجماعة هذا في خاتمة بحثها تحت عنوان " استنتاجات عامة " بأن التشابه في اتجاهات الشباب في جميع الأسر العربية المسلمة والمسيحية في جميع البلاد العربية التي أجرى فيها البحث تشير إلى التشابه الحضاري في جميع هذه المجتمعات بالرغم من اختلاف درجة التأثير بالمدنية الغربية .

١٩٥ - وهكذا يثبت عن طريق دراسة تطور المجتمعات من أسر وعشائر ، إلى قبائل وشعوب وامم ، وعن طريق دراسة التطور التاريخي للمجتمعات منذ ظهور الإسلام في هذا الجزء من الأرض الذي نطلق عليه اسم الوطن العربي ، وعن طريق نموذج من التطور التاريخي لأكبر الأقطار العربية منذ عشرات القرون ( مصر ) ومن دراسة اتجاهات الشباب في عدة أقطار عربية منفصلة ، ومستقل بعضها عن بعض باعتبار أن الانتماء الحضاري في بداية مرحلة الشباب يكون أكثر نقاء مما يخالطه خلال رحلة الحياة بعد ذلك ، بالإضافة إلى ما لا حصر له من دراسات منصبّة على إثبات وحدة المميزات الحضارية في الشعب العربي وعلى رأسها اللغة والشعور بالانتماء إلى أمة واحدة شعباً ووطناً بالإضافة إلى الإجماع العالمي في كل دراسة تاريخية أو فلسفية أو فنية أو سياسية على وصفنا ككل بأننا عرب ، ووصف كل واحد منا بأنه عربي ، ووصف البلدان المتعددة في وطننا بأنها بلدان عربية ، ووصف كل قطر على حدة بأنه قطر عربي ( رؤيتنا من الخارج ) . . كل هذا يثبت أننا أمة مكتملة التكوين . أصبحنا هكذا بفعل قوانين التطور ، لم يصنعنا أحد وما اصطنعنا انفسنا فيثبت أولاً وقبل كل شيء أن حضارتنا حضارة قومية لاقبلية ولاشعوبية ولا عشائرية بدون إنكار أنها لم تصل إلى أن تكون حضارة قومية إلا بعد أن تطورت نامية من حضارات عشائرية متميزة ، إلى حضارات قبلية متصارعة ، إلى حضارات شعوبية متجاوزة ، فهي المحصلة الحضارية الأرقى لتفاعل كل تلك الحضارات على مدى قرون طويلة . وقد عرفنا من قبل كيف كانت الثورة الحضارية الإسلامية هي محرك هذا التفاعل وحارسته وقائده إلى تجاوز الطور القبلي إلى الطور الشعبي إلى الطور القومي ( فقرة ٢٢ وما بعدها ) ، فكانت حضارتنا القومية ذات مضمون إسلامي .

فإذا صح كل هذا ، وهو عندنا صحيح ، وكانت الحضارة هي صانعة الهيكل الأساسي للشخصية فيمكننا القول بأن الشخصية العربية السوية هي شخصية عربية إسلامية أياً كانت عقيدة صاحبها . مع التأكيد مرة أخرى وأخيرة على أنه لم يكتسب هذه الشخصية بإرادته ، بل انتقلت إليه عبر آلاف الاجيال قبل أن يصل إلى سن السادسة عشرة ، لاحيلة له في هذا ولا إرادة .